

الدكتورة: فاطمة عبد الفتاح

إضاءات على الاستشراق الروسي

دراسة

إضاءات

على الاستشـــراق الروسي

البريد الالكتروني: E-mail :unecriv@net.sy

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.com

تصميم الغلاف للفنان : صالح الخضر

□□

الدكتورة: فاطمة عبد الفتاح

إضاءات على الاستشراق الروسي

* دراســة *

من منشورات اتحاد الكتّاب العرب

2000



المقدمة

إن الاستشراق معرفة ذات جوانب متعددة، وإن أحد جوانب هذه المعرفة الأساسية كان الفضول المعرفي الذي هدف إلى دراسة الآداب العربية الإسلامية، والمجتمعات التي أنتجت هذه الآداب والحضارة الإسلامية، وبالتالي فإننا عندما نتحدث عن الاستشراق فإننا لن نتحدث عن شرق هندي أو شرق صيني، إننا نتحدث عن الشرق العربي المسلم.

لقد كانت إحدى إشكاليات المعرفة الأوروبية الغربية، أنها كانت تمتلك المنهج العلمي الموضوعي في النظر إلى مشاكل الغرب لكنها لم تكن تمتلك مثل هذا المنهج الموضوعي في التعامل مع الشرق العربي الإسلامي وآدابه وحضارته، بل اعتبر الغرب الأوروبي نفسه وصياً على العلم والمعرفة والحضارة، وكان يتعامل مع الشرق المسلم من خلال النظرة التي أنشأها الاستشراق الأوروبي الغربي عن الشرق العربي الإسلامي وحينئذ انتفت الديمقراطية، التي تعتبر أساس الحضارة الغربية ومارس الغرب الطغيان والفوقية في نظرته إلى الآخر، إلى الشرق المسلم؛ إن الحديث عن الاستشراق الروسي، يأتي في جانب منه لتبيين أن هذا الاستشراق الروسي، لم يقع في فخ الاستشراق الغربي المسيّس، والذي

كـان أسـبق من الاستشراق الروسي في الظهور زمنياً، وأنه غالباً، كـان الفضول المعرفي الإنساني هو الذي يحكم هذا الاستشـراق، ومـع وجـود الفـارق الزمني بين الاستعراب الروسي والاستشراق الأوروبي الغربي، إلا أننا، لا نجد مبرراً كافيـاً، لأن يغمط هذا الاستعراب حقه في تسليط الضوء عليه ودراسـته دراسـة وافيـة، كتـلك التي حظي به الاستشراق الغـربي، سواء من قبل الأوربيين الغربيين أنفسهم أو من قبل الباحـثين العرب. ويبدو أن هذا التجاهل للاستعراب الروسي، قد انطلق من الجهات الاستشراقية الأوروبية الغربية، إذ غالباً ما وُصفَ هذا الاستعراب بأنه لا قيمة له، وازداد هذا التجاهل فـي فترة الاتحاد السوفييتي، ولاعتبارات أيديولوجية بحتة، تم اتهـام هذا الاستعراب بأنه ينفذ سياسة الحكومات في الوقوف إلى جانب شعوب العالم الثالث، والمشرق العربي المسلم جزء من شعوب هذا العالم، كما تم تجاهل الاستعراب الروسي من قـبل الأوسـاط العلمية العربية الإسلامية نفسها، ولست أدري هل هي عقدة التفوق الأوروبي الغربي، والتي كرسها الغرب، وبأنه وحده الجدير بالاهتمام والدراسة والأخذ بآرائه وأحكامه العـلمية بمـا فيها الاستشراقية، أو أن (الإلحاد) الذي كان في صـلب الأيدلوجيـة السـوفياتية كانا من الأسباب التي جعلت العـلماء العـرب المسلمين ينأون عن دراسة هذا الاستعراب وتسـليط الضـوء عـليه وعـلى جهوده العلمية، أم أن هذا الاسـتعراب نفسه لم يمارس دعايته كما فعل نظيره الأوروبي الغربي، عبر المنابر المختلفة.

فـــي هــذه الدراســـة أحاول أن ألقي بعض الضوء على الاســـتعراب الروســـي، وعـــلى الـــدور الذي قام به العلماء والباحـــثون الـــروس في فهم آداب الشعوب العربية الإسلامية ودراســـة حضـــارتها، وبالتالي الإنسان الشرقي المسلم، الذي أبـــدع هـــذه الحضارة وهذه الآداب، وكيف تكونت الشخصية العـــربية الإسلامية في وعي الإنسان الروسي عبر استعراب العـــلماء الـــروس، آمـــلةً أن أكـــون قد فتحت طريقاً يستطيع الباحثون سد الثغرات التي لم أستطع تداركها.

❑❑

مفهوم الاستشراق:

لقـــد تـــباين مفهوم الاستشراق واختلف بين المستشرقين الذيـــن لهم باع طويل في هذا الحقل المعرفي، وبين المفكرين العـــرب الذيـــن أبـــدوا اهتماماً واسعاً بالاستشراق خاصة بعد صــــدور كــــتاب أدوار سعيد (الاستشراق) بطبعته العربية عام 1981، وإن كـــان اهتمام الباحثين العرب بالاستشراق لا يعود فـــي بداياته إلى كتاب إدوارد سعيد وإنما سبق ذلك مقالة أنور عـــبد المـــلك (الاستشراق في أزمة)، والتي نشرت في مجلة ديوجيـــن عـــام 1963، ومن ثم في (الجدلية الاجتماعية) في بـــاريس عـــام 1971 ثم في مجلة الفكر العربي عام 1983، ودائماً قدم الاستشراق، وهنا لم يتم الحديث إلا عن الاستشراق الأوروبي الغربي، على أنه انتاج النظرة الأوروبية العنصرية تجـــاه الشرق، هذه النظرة التي تفترض حق الهيمنة والسيطرة عـــلى الشـــرق بداعي التفوق الأوروبي في الوقت الذي كان يعـــاني فيه من العجز نتيجة الاستعمار الأوروبي الغربي له، فقـــام المستعمِر بتوصيف المستعمَر وإنشائه حسب مايحلو له ويخـــدم مصــــالحه، وكـــرس هذا الوصف في وعي الإنسان

الأوروبي الغربي لأجيال عديدة.

يرى إدوارد سعيد الاستشراق أنه (أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي (أنطولوجي) ومعرفي (أبستمولوجي) بين الشـــرق ((وفـــي معظـــم الأحيـــان)) و((الغرب)) وبإيجاز، الاستشـــراق، كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه وامتلاك السيادة عليه)[1].

ويعـــزو أنـــور عبد الملك ازدهار الدراسات الشرقية إلى ارتـــباطها بالاستعمار الأوروبي وسيطرته على بلدان الشرق الأقصـــى والعـــالم العـــربي فيقـــول: (إن الازدهار الحقيقي للدراســـات الشرقية في القطاعين الرئيسيين اللذين هما الشرق الأقصـــى والعـــالم العـــربي يعود تاريخه بالدرجة الاولى إلى عصـــر الـــتمركز الاســـتعماري، وبشكل خاص إلى السيطرة الأوروبيـــة عـــلى "القارات المنسية" في أواسط القرن التاسع عشر، ثم في ثلثه الأخير)[2].

أمـــا المستشرقون أنفسهم، فيرون أن الاستشراق تم بدافع الفضـــول المعرفي للشعوب الأخرى، فيرى مكسيم رودنسون أن الاستشراق كان يعبرعن الرغبة (في توسيع الفلسفة الإنسية (هيومانيـــزم) لعصـــر النهضة، ففي نهاية القرن الثامن عشر وبدايـــة القرن التاسع عشر، أرادوا أن يضيفوا إلى الحضارات الـــنموذجية الكلاســـيكية الـــتي تســـتلهمها أوروبا حضارات

---

(1) ص 38 الاستشراق ــ إدوارد سعيد.

(2) ص 71 الاستشراق في أزمة ــ أنور عبد الملك.

أخرى)[3]. وهكذا أضافوا نماذج من الحضارات الشرقية، ولما أرادوا التوصل إلى معرفة تلك الحضارات معرفة علمية، نما الاستشـــراق وازدهـــر، ولكـــن إرادة المعـــرفة العــلمية هذه بالحضـــارات الشـــرقية تمت عندما استطاع الغرب أن يغدو أقـــوى مـــن الشـــرق، وبالـــتالي أصبح هذا الأخير موضوعاً مدروســـاً والغـــرب ذاتـــاً دارسة بعد أن أدرك الغرب تفوقه واختـــلفت العلاقات بين الشرق والغرب عما كانت عليه عندما كـــان الشرق مزدهراً والغرب يعاني من الضعف والانحطاط. وبالتالي فإن الاستشراق الغربي، ارتبط بالمشروع الاستعماري الفرنســـي ــ الـــبريطاني، والـــذي أصـــبح الاستشراق وجهه الثقافي.

وعـــادة يـــؤرخ لهذا الاستشراق منذ القرن التاسع عشر، وعـــلى أبعـــد حـــد نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاســـع عشر، لذلك نرى أن مصطلح (استشراق) ظهر لأول مرة في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام (1838م)، وظهرت كلمة (مستشرق) باللغة الإنكليزية حوالي عام (1779)م.[4]

ومـــن منطـــلق الهيمـــنة والوصـــاية التي نشأ في ظلها الاستشـــراق، من حيث هو الوجه الثقافي للمشروع الأوروبي الغـــربي الاســـتعماري فإن مهمة المستشرق الأوروبي كانت تكمـــن في (حجب الخطابات الشرقية ذاتها وإحلال خطاباتهم

---

[3] ص86 مقالة مكسيم رودنون في (الاستشراق بين دعاته ومعارضيه)، هاشم صالح.

[4] ص 88 مكسيم رودنسون.

محلها، فهي وحدها المكلفة بتقديم صورة عن الشرق).[5].

وبعــد أن أدى الاستشراق الأوروبي الغربي مهامه، فإن مكســيم رودونســون يقــترح التخلي عن استخدام مصطلحي ((استشــراق)) و((مستشــرقين)) بعد أن أصبحا أسطوريين، (ولذلك فسوف ندعوهما بالدراسات العالمة أو العلمية المتركزة حول تاريخ مجتمعات الشعوب المتموضعة شرقي أوروبا)[6].

أمــا المســتعرب الروســي أغناطيوس كراتشكوفسكي (1883 ــ 1951)، مؤســس الاســتعراب الروســي الجديد فيتخــلى عــن مصــطلح الاستشــراق مــنذ البداية، ويسمى (الاستشراق الروسي)، بــ(الاستعراب الروسي).

فيقول (العصر الجديد في تاريخ الاستعراب الروسي، يبدأ مــن المرســوم الجامعي سنة 1804 لأن هذا المرسوم أدخل تدريــس الــلغات الشــرقية في برنامج المدارس العليا وأسس الأقســام الخاصة لهذه اللغات، وأما اللغات الشرقية في أوروبا الغــربية في ذلك الزمان، فقد كانت المكانة الأولى بين اللغات الســامية اللغة العبرية، أما عندنا في روسيا، فاللغات الشرقية فــي مفهــوم الروس، كانت لغات الشرق الإسلامي، وشغلت الــلغة العــربية المكانة الأولى وقد أُنشأ قسم اللغة العربية في جامعــة خــاركوف بعــد صدور المرسوم في عام 1804 م مباشرة)[7].

---

[5] *ص 203 ــ الاستشراق بين دعاته ومعارضيه.*

[6] *ص113 ــ المصدر السابق.*

[7] *تاريخ الاستعراب الروسي ــ كراتشكوفسكي فرالوفا.*

هــذا في حين أن أتش. أي. أر. جب. العالم بالدراسات العــربية الإســلامية المعــروف كـــان يفضل أن يسمي نفسه (مستشرقاً) على أن يسمي نفسه مستعرباً.

وجغــرافياً كـــان الشرق يمتد ليشمل، الهند، وجزر الهند الشــرقية، والصين واليابان، وكل مايقع شرق الخط الذي يقسم العـــالم جغــرافياً إلى قسمين شرق وغرب، ولكن في النهاية، كـــان يـــتم الحديـــث دائماً في الاستشراق عن الشرق العربي المســلم، الـــذي كان موضوع دراسة المستشرقين، وهذا هو الشرق الذي يعنينا في هذه الدراسة، وبالتالي، فإنه يصح لدينا استخدام مصطلح (الاستعراب)، لهذا الحقل من الدراسات التي تـــناولت الشرق العربي الإسلامي وتصح تسمية (المستعربين) لـــلذين درسوا الشرق العربي ـ الإسلامي من النواحي الثقافية والاجـــتماعية والسياســـية، لأن (المستشرقين) كافة في نهاية المطـــاف، قـــد اخـــتزلوا الشرق، بالعرب ـ المسلمين، الذين شـــكلت حضارتهم تحدياً وتهديداً للغرب الأوروبي الذي يُؤَرِخ لبدء الاستعراب الرسمي فيه بصدور قرار مجمع فيينا الكنسي عـــام (1312م) والقاضـــي بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية لـــلغات (العربية واليونانية والعبرية والسريانية) في جامعات (بـــاريس وأوكســفورد وبولونيـــا وأفنيون وسلامنكا) أي أن الاســتعراب كان رسمياً بقرار كنسي، ومن أعلى سلطة دينية مسيحية في الغرب، وقد كان ذلك بعد الحروب الصليبية. كما نرى أن اللغات التي تقرر تدريسها، هي لغات الكتب السماوية الـــثلاث، إضافة إلى لغة الحضارة اليونانية التي تعتبر أوروبا

نفسها الوارث الشرعي لها.

ولكــن تــنفيذ هــذا القرار عملياً، لم يتم إلا بعد قرن من الــزمان تقريــباً (إذ لم تتوفر العناصر البشرية المنفذة، كما لم يــتوفر المال اللازم لتحقيق الحلم)[8]. فحتى عام (1453م) لم يكن هناك مسيحي أوروبي واحد يعرف اللغة العربية.

إن دراسة الشرق العربي ــ المسلم، جاءت بقرار كنسي، ونــتيجة من نتائج الحروب الصليبية، التي كانت أيضاً بقرار ديــني ولــئن كــانت دوافع الدراسات العربية الإسلامية، في حقيقــتها دوافــع استعمارية، فإن هذه الدوافع انبثقت من رحم الحروب الصليبية، التي كانت أول تجربة استعمارية خاضتها أوروبــا خارج حدودها، حيث أسقط الغرب الأوروبي ضعفه عــلى الشــرق العربي الإسلامي، وحاول إيجاد حل لمشاكله المــتفاقمة ديــنياً واجتماعياً واقتصادياً في هذه الحروب التي اجــتاحت جيوشها الشرق العربي المسلم، فبعد أن تفشى الفساد فــي الكنيســة والمجتمع، رأى البابا أربان الثاني (1088 ــ 1099م)، أن من الضروري القيام بمغامرة مثيرة تضع العالم المســيحي بأجمعه أمام عمل وهدف مشترك، وكان خطابه في المجمع الكنسي في كليرمونت والذي دعاه لجلسة استثنائية في تشــرين الثاني (1095م)، تعبيراً صريحاً عن الواقع المتصدع الذي يعيشه الغرب المسيحي، والرغبة الواضحة في وضع هذا الغــرب أمام هدف عام واحد، فقد قال في خطابه أمام المجمع المذكــور (انهضوا وأديروا أسلحتكم التي كنتم تستعملونها ضد

---

[8] *ص 119 سوذرون ــ صورة الإسلام في أوروبا .*

إخوانكـــم، ووجهوهـــا ضـــد أعدائكـــم، أعداء المسيحية، إنكم تظـــلمون اليـــتامى والأرامـــل، وأنـــتم تـــتورطون في القتل والاغتصـــاب، وتنهـــبون الشعب في الطرق العامة، وتقبلون الرشـــاوى لقـــتل إخوانكم المسيحيين، وتريقون دماءهم، دونما خـــوف أو وجل أوخجل، فأنتم كالطيور الجوارح آكلة الجيف، الـــتي تنجذب لرائحة الجيف الإنسانية النتنة، ضحايا جشعكم، انهضوا إذن، ولا تقاتلوا إخوانكم المسيحيين بل قاتلوا أعداءكم الذيـــن استولوا على مدينة القدس، حاربوا تحت راية المسيح، قـــائدكم الوحيـــد، افتدوا أنفسكم، أنتم المذنبون المقترفون أحط أنـــواع الآثام وهذه ((مشيئة الله))[9]. وأربان الثاني هو خليفة البابا غريغوريوس السابع اليهودي الأصل، والذي هو صاحب فكرة الحملة الصليبية لتحرير القدس، والتي حدد فيما بعد البابا أربـــان الـــثاني موعدها يوم(15 آب 1096)، والنص السابق يعكـــس لنا مدى التفسخ الذي أصاب المجتمع الأوروبي والذي جعل من المسيح محارباً.

لقد كانت الحروب الصليبية حلاً للمشاكل التي عانت منها الكنيســـة الغـــربية، فـــي صراع البابا غريغوريوس السادس، والـــبابا غريغوريوس السابع مع الإمبراطورين هنري الثالث وهـــنري الرابع في ألمانيا وما تبع ذلك من نزاع وقتال عانت مـــنهما الكنيســـة والمجتمع معاً إضافة للدافع الأساسي الآخر لهذه الحروب وهو (رغبة البابوية في إخضاع الكنيسة الشرقية

---

[9] *ص 244 بابوات من الحي اليهودي.*

الأرثوذكسية لزعامتها)[10]. وذلك بعد الانشقاق الديني سنة (1054م)، بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة اليونانية، واستحكام النزاع بين الأباطرة البيزنطيين والبابوية في روما، يقول أرنست باركر ((وكان من الطبيعي أن يضحي الاستيلاء على بيت المقدس هدفاً لتحقيق أطماع المسيحية الغربية، ومن الطبيعي أن تتعلق به الكنيسة وتحاول أن تسير به قدماً، وذلك لحرصها على تحقيق حلمها بقيام كنيسة عالمية تخضع لسلطانها)[11]

إذن، تسيير الحملات الصليبية باتجاه الشرق العربي ـ الإسلامي، تحت ستار ديني، كانت غايته عملياً، البحث عن حل لمشاكل المجتمع الغربي المسيحي، وكذلك، إقامة كنيسة عالمية، بإخضاع الكنيسة الشرقية لسلطة روما، من خلال إيجاد هدف عام مشترك هو قتال المسلمين وتحرير بيت المقدس، وبالتالي فإن الحروب الصليبية في دوافعها وكذلك في أدواتها كانت أوروبية غربية، إذ تشكلت معظم جيوش تلك الحروب من فرنسا وإيطاليا واسكتلندا وألمانيا، بينما نرى أن أوروبا الشرقية قد عانت من هذه الحملات وهي تجتاح أراضيها متجهة إلى الشرق الإسلامي، فعندما زحفت فرقها خلال سهول هنغاريا، كانت تعمل السلب والنهب والاغتصاب، غير مبالية بديانة أصحاب البلاد، لقد كانت هذه الحروب هي التجربة الاستعمارية الأولى، التي خاضها الغرب لتحقيق

---

(10) *ص 22 تاريخ العلاقات بين المشرق والمغرب ـ عاشور.*

(11) *ص 16 الحروب الصليبية ـ أرنست باركر.*

المكاسب الآنفة الذكر، ومن هذه التجربة وهذه الحروب الاستعمارية انبثق الاستشراق الأوروبي الغربي، في الوقت الذي كانت فيه روسيا بعيدة عن هذه الحروب، وعن هذا السعي الاستعماري في الشرق العربي الإسلامي.لقد فوجئت الكنيسة الشرقية نفسها بهذا الزحف الغربي، إذ أن إمبراطور القسطنطينية (الكسي كومينين)، كان قد طلب إمدادات لمواجهة السلاجقة، ولكنه فوجئ بهذه الجيوش الجرارة، إذ أنه في الأساس لم تكن هناك مشكلة بين الكنيسة الشرقية والإسلام وكان الإسلام راعياً وحامياً للمسيحيين في دولة الإسلام، ولكن النزعة الأوروبية المركزية في السيطرة على الشرق العربي الإسلامي قد بدأت بالتشكل منذ ذلك الحين، إن المركزية الأوروبية التي نما في حضنها الاستشراق الأوروبي الغربي بنيت على الفكرة الأساسية الصليبية، إذ سعت المسيحية الغربية إلى جعل نفسها مركز العالم، بإخضاع المسيحية الشرقية، وتوحيد الكنيستين ولو بالقوة، وبالتالي تحقيق عالمية الكنيسة، بإخضاع العالم كله لسلطة روما، يقول ريتشارد سوذرن (نحن في الواقع جزء صغير من المسيحية في العالم، لكننا نزعم أن العالم كله مرغم على اتباع آرائنا، ونزعم أيضاً، أن هذا العالم يرتعد تحت وطأة توجيهاتنا)[12]. لم تكن هناك مشكلة بين المسيحيين والمسلمين في دولة الإسلام، إذ كان (المسيحيون في بلاد الشرق يرون أن حكم المسلمين أخف

---

[12] ص 126 سوذرن.

وطأة من حكم بيزنطة وكنيستها).[13]

ولـــم تكـــن هناك مشكلة بين المسلمين والكنيسة الشرقية (الـــبيزنطيين) فـــي نفس الوقت، ولكن بعد الحروب الصليبية الأولى ميز العرب المسلمون بين المسيحية الشرقية التي كانوا يتعامـــلون معهـــا، ولم تكن لهم معها مشكلة، وبين المسيحية الغـــربية التي جاءت غازية بجيوش جرارة، وبعد أن أدركوا غاياتهـــا، وأن المسيحية الشرقية ليست سوى تبرير للحملات الصـــليبية الغـــربية أصـــبحوا يطـــلقون اسم (الافرنج) على المســـيحية الغربية، تمييزاً لها عن (الروم)، هذه التسمية التي كـــانت تطـــلق على المسيحية الشرقية المجاورة جغرافياً، لتعم جميع المسيحية. إلا أن الوضع اختلف بعد الحملات الصليبية، وأدرك العـــرب المســـلمون، أن المشـــكلة ليست مع (الروم) المســـيحية الشـــرقية، وإنمـــا مع (الإفرنج) المسيحية الغربية، وســـوف نـــرى أن المســـتعرب كراتشكوفسكي فيما بعد، قد اســـتخدم هـــذه المصـــطلح (الإفـــرنج) في حديثه عن أوروبا الغربية.

إن معـــرفة الغرب للشرق العربي الإسلامي تمت بأوسع صورها من خلال الحملات الصليبية، وبالتالي فإن الاستعراب الأوروبـــي الغربي، كان نتيجة من نتائج هذه الحروب، ولذلك نـــرى أنه من الضروري التمييز بين استعراب نشأ هذه النشأة الاســـتعمارية وبيـــن اســـتعراب لم يكن كذلك بالنسبة لروسيا وغيرها، حيث تختلف الدوافع والغايات، ولأن هذا التمييز هو

---

[13] *قصة الحضارة ـــ ول ديورانت.*

الـذي يحـدد موقفنا من الاستعراب بجانبيه الشرقي والغربي خاصـة وأن بعـض المؤرخين يعتقدون بأن النزاع الذي كان موجـوداً بين القوتين الأعظم الكتلة الشرقية والكتلة الغربية له جـذوره العميقـة في النزاع بين الكنيستين في القرن الحادي عشر، ففي هذا القرن بدأ نشوء العالمين الشرقي والغربي (فلو نجحـت الكنيسـة اللاتيـنية فـي الإبقاء على كنيسة موحدة كاثوليكيـة حقيقيـة ومقبولة لدى الجميع، لكانت بلدان البلقان وروسيا الآن جزءاً من العالم الغربي فإن الانفصال بين روما والقسطنطينية لم يكن حدثاً محلياً، أو مجرد تاريخ من تواريخ الكنيسة، ولكنه كان حدثاً عالمياً هزّ أركان العالم)[14].

ونسـتطيع القـول أن هدف الكنيسة الغربية، كان تحقيق عالميـة العالم، ولو بالقوة من خلال الحروب الصليبية، ولعل العولمـة الآن هي وجه آخر من وجوه هذا المشروع الموغل في القدم. .

إن إنشـاء الشرق في ذهن الغرب، كان من خلال النتاج الفكـري (الأدبي والتاريخي) الذي أعقب هذه الحروب، والذي امـتزج فيـه الواقعـي بالوصف التاريخي الأسطوري لهذه الحـروب، وبالـتالي من الطبيعي، أن الاستشراق الأوروبي الغربي الذي ضربت جذوره في هذا النتاج الفكري، أن يكون محشـواً بالمغالطـات التي كرست فكرة التمايز بين الشرق والغرب فيما بعد.

---

(14) *ص 177 باباوات من الحي اليهودي.*

لقد حث المبشر ريموند raymondas lulus (مجمع فيينا سنة 1311 على أن يتخذ قراراً كنسياً بإنشاء ست مدارس للغات الشرقية في أوروبة)[15].

وكانت روسيا خارج هذا القرار الكنسي، لأن الحلفاء الممكنين للكنيسة الغربية (المغول والأرثوذكسية الشرقية)، أصبحوا أعداء قائمين من خلال إقبال المغول على الإسلام الذين ظن الغرب في البداية أنهم مسيحيون اجتاحوا الشرق العربي الإسلامي للقضاء على الإسلام فاستبشروا بهم خيراً، ومن خلال تعميق العداء بين الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية والكنيسة الغربية.

وبالتالي، فإننا عندما نتحدث عن الاستعراب الروسي فلن نتحدث عنه بوصفه نتيجة من نتائج الحروب الصليبية ولا كونه ممثلاً (للمركزية الأوروبية) وعقدة التفوق والهيمنة ولا من باب رؤية غابريللي، أن هذا الاستشراق (يرفع رسمياً الرايات المضادة للاستعمار من أجل إرضاء أبناء العالم الثالث)[16].

وإنما لأن الاستعراب الروسي نما في ظروف مختلفة عن تلك التي ترعرع فيها الاستشراق الغربي، وكذلك لاختلاف دوافعه وغاياته في مرحلتي روسيا القيصرية ومابعد ثورة أكتوبر.

---

[15] *ص 150 الحروب الصليبية ـ باركر.*

[16] *أوردها سوندرن ص 19.*

البدايات والدوافع:

لـــم تعـــرف روســـيا الدين المسيحي قبل القرن العاشر الميـــلادي، عـــندما أرسل القيصر فلاديمير المقدس رسله إلى الـــبلاد مستفسراً عن الأديان ليكون أحدها ديناً للدولة، وحسب المســـتعربة فـــرالوفا (إن سبب عدم اختيار الإسلام ديناً للدولة كـــان بسبب تحريم الخمر)، وقد ابتدأت معرفة روسيا بالشرق العـــربي المســـلم، من خلال رحلات الحجاج المسيحيين إلى الديـــار المقدســـة ومـــن خلال الرحالة والتجار، وكانت هذه المعـــرفة وصـــفية، ولم تختلف عن وصف الرحالة والتجار الغـــربيين الأوائـــل للشرق الإسلامي، ولعل من أوائل التجار الذيـــن زاروا بـــلاد الشرق ومكثوا فيها فترة، التاجر الروسي أفاناس نيكتين، الذي امتدت رحلته إلى الشرق مابين (1466-1474م)، وزار فيها البلاد العربية ومكث فترة في بلاد فارس والهـــند، كمـــا زار مسقط والصومال وتركيا، وألف كتاباً عن هـــذه الرحـــلة سماه (الرحلة إلى الأراضي الواقعة وراء ثلاثة بحور) كما شكلت الشعوب المسلمة المجاورة لروسيا مصدراً هامـــا مـــن مصادر معرفة الروس بالعالم الإسلامي والثقافة العـــربية الإسلامية، هذا وإن صلات روسيا مع بلدان الجوار الإســـلامي، ولـــدت فضـــولاً لمعرفة الإسلام وتجليات الثقافة الإســـلامية.وفيمـــا بعـــد، عندما أصبحت بعض هذه الشعوب الإســـلامية ضـــمن الدولة الروسية فإن هذه المعرفة أصبحت ضـــرورية. وعلى الرغم من الحروب التي كانت بين روسيا وتـــركيا، فـــإن العداء لم يكن موجهاً ضد الإسلام كدين وإنما

تجـــاه الدولة التركية، وتجاه التتار، وقد تم استغلال المسيحية من قبل الدولة الروسية والإسلام من قبل الأتراك لاستخدامهما كغطاء أيديولوجي لسياسة كل من الطرفين تجاه الآخر، وتعبئة شـــعب كـــل مـــنهما ضـــد الآخر لتبرير الحروب القائمة بين الطـــرفين. وقد كان للجهل المسيطر في روسيا تسهيلاً لمهمة السلطة في تسخير العامل الديني في الحرب مع الأتراك، إذ لم تتجاوز نسبة المثقفين والفئة المسيطرة في روسيا آنذاك 3%، من سكان البلاد، وأن أغلبية الروس حتى عام (1860) كانوا عـــبيداً لا يقـــرأون ولا يفهمـــون سوى تعاليم الكنيسة وكلام القساوسة.[17]

وحقيقة الأمر أن الصراع بين روسيا وتركيا كان صراعاً سياســـياً حول شبه جزيرة القرم وتوسيع النفوذ السياسي على الـــبحر الأسود ولكن هذا الصراع لم يكن يوماً بدافع ديني أي مـــن منطـــلق العداء بين المسيحية الشرقية والإسلام ولطالما اعتـــبر الـــروس أنفســـهم شـــرقيين. وفي هذا نرى أن العالم العربي، الإسلامي، كان خارج دائرة هذا الصراع وبالتالي لم يكـــن هـــناك صدام بين روسيا والعرب المسلمين، ولم تتواجد الجيـــوش الروســـية في أي زمان على أراضي العالم العربي الإســـلامي، وإذا تواجدت فكان ذلك بدافع تقديم المعونة لبعض الحكومـــات القائمة (ففي أيام محمد علي، عندما أرادت إنكلترا أن تحـــتل الشـــواطئ المصـــرية، أرسلت الحكومة القيصرية الأسطول البحري الروسي، الذي اعترض محاولة إنزال مشاة

---

[17] *فر الوفا.*

البحرية الإنكليزية في الإسكندرية).[18]

وقد يبدو هذا الموقف مفهوماً في إطار العداء بين روسيا وإنكلـترا وبيـن روسيا وتركيا حول شبه جزيرة القرم، ولكن المهـم أيضـاً، أنـه لـم يكن هناك عداء بين البلاد العربية الإسـلامية وبيـن الـروس، ولذلك فإنه يمكننا القول بأن من أسـباب تميُـز الاستعراب الروسي عن الاستعراب الأوروبي الغـربي، إنـه لـم يصدر عن مثل أرضية العداء بين الغرب والشـرق الإسلامي، وإنما كان هذا الاستعراب بدافع الفضول المعـرفي الإنساني، لأن المستعربين الروس أنفسهم يرون أن الـتراث الشـرقي الإسـلامي هـو جزء من تراثهم. فيقول المسـتعرب بـلوندين (نحن الروس، وجميع الذين في الساحة الروسـية القيصرية السابقة، نحن شرقيون بأنفسنا، وجزء من أراضـينا موجود في آسيا، وثلثي حدودنا مع دول آسيوية مثل تـركيا والصـين، وكذلك المناطق الإسلامية التي كانت قديماً ولايات للخلافة العربية)[19].

لذلك فإن الدراسات الشرقية ليست دراسات لعالم بعيد أو غريب (وليست دراسات مرتبطة كثيراً بالسياسة الاستعمارية، فـي روسيا الحضارة الإسلامية جزء من تراثنا، أغلبية الناس فـي روسيا مسيحيون أرثوذكس، والدين الثاني في روسيا هو الإسلام لذلك نحن ندرس تراثنا لأن الحضارة الإسلامية جزء

---

[18] بلوندين.

[19] بلوندين.

من تراثنا)[20].

وإلى جـانب الدوافع المعرفية للاستعراب الروسي، كان هـناك اتجـاه سياسي للدراسات العربية ـ الإسلامية، ارتبط بوزارة الخارجية والكنيسة وقد برز في وقت من الأوقات في بعـض المـناطق، مثل قازان، تعصب ديني من قبل الكنيسة وحمـلات التبشـير الغـربية، ترافق أحياناً بحملات التنصير بالقوة، والتي جاءت القيصرة ايكاترينا الثانية، لتترك للمسلمين التتار حرية اعتناق المسيحية أو الإبقاء على دينهم الإسلامي، وقـد رافـق هـذا التعصب الذي عبرت عنه مجلة (التبشير المـناهض للإسلام) مواقف مضادة من علماء مستعربين مثل بـارتولد وروزن اللذين وقفا ضد الحركات العصبوية الدينية، وهذا الموقف من المستعربين الروس ضد التيار المتعصب لم نـلمح له مثيلاً في استعراب الغرب الأوروبي، وهذا الموقف يعـني أيضاً، أن الموقف والموقف المضاد ماكان ليسمح ببقاء صـورة العـربي المسـلم فـي ذهن الروسي صورة أحادية الجـانب، فـتكون هي الطاغية والفاعلة، وبالتالي من الممكن القول أن التعصب الديني والعداء الديني لم يحكما نظرة وفعل الاسـتعراب الروسي، وبالتالي فإن دور الكنيسة الأرثوذكسية كـان أقـل بكثير من دور الكنيسة الكاثوليكية في الاستعراب وفي إنشاء صورة الشرقي المسلم بشكل مشوه لأنه بوجه عام (لـم يكـن الإسلام بالنسبة للكنيسة الروسية عدواً، وإنما كانت الدعايـة ضد الإسلام ضرورية للكنيسة من أجل إقناع الناس

---

(20) بتروفسكي.

بالمسيحية، وهذا غير مرتبط بتعصب شديد أو بأغراض سياسية واضحة، وبالتالي نستطيع القول عن هذا الصراع أنه كان مباراة ولم يكن كفاحاً).[21]

إذن، إذا كانت معرفة العالم العربي الإسلامي قد تمت بدافع كنسي في أوروبة الغربية وأحدثت معاهد الاستشراق بناء على قرار كنسي، باعتبار أن الإسلام يمثل خطراً أو تحدياً للآخر، المسيحي الغربي، بحيث بات (ضرورياً التعرف على الإسلام بشكل واقعي، وماكان ذلك سهلاً، هكذا نشأت مسألة تاريخية ماكانت معالجتها ممكنة بغير معرفة لغوية وثقافية واسعة لم تكن متاحة بادئ ذي بدء)[22]. فإنه لم تكن هناك مواجهة حقيقية تحمل هذا الطابع، طابع العداء والتحدي بين الكنيسة الشرقية في روسيا وبين الإسلام، لم يكن هناك إحساس بالخطر من الإسلام، فقد كانت بلاد وسط آسيا المسلمة تقع ضمن روسيا القيصرية، وبالتالي فقد درس الاستعراب الروسي الثقافة الإسلامية على أنها جزء من تراثهم وتعامل مع الواقع الإسلامي ككيان اجتماعي وواقع إنساني قائم، وبالتالي لم يتم الحديث عن عالم شرقي إسلامي غرائبي، لقد كان هذا الشرق الإسلامي مجاوراً وتم التعايش والاحتكاك معه والإفادة منه. وبالتالي فإن الإسلام مثل عنصراً تنافسياً وليس عدائياً للمسيحية الأرثوذكسية في روسيا، وهذا مختلف تماماً عن الموقف الذي صدر عن الكنيسة الأوروبية

---

(21) بتروفسكي.

(22) ص 37 صورة الإسلام في أوروبة وسوذرن.

الغــربية تجــاه الإســلام والذي جاء بالحملات الصليبية، لقد تعــايش الإسلام والمسيحية جنباً إلى جنب في روسيا، وبالتالي فــإن نشأة الاستعراب الروسي لم تتم في حضن العداء الديني ولا مــن ضــرورة دراســة الإســلام كعدو قائم يمثل خطرا واجــتياحاً، ومــن ثــم لم يكن ضرورياً إنشاء صورة الشرق العــربي الإســلامي كعــدو كمــا هو الحال في الاستشراق الأوروبــي، وإن كــانت بعض المعلومات التي كانت ترد من خــلال الــرحالة والتجار لا تخلو من بعض الأسطرة للشرق العربي المسلم.

لقد شجعت الحكومات الروسية في العهود المختلفة دراسة الــتراث العــربي الإسلامي وخاصة ذلك الذي يتعلق بالأقاليم الإســلامية الواقعــة ضــمن الدولــة الروسية، وذلك لتوسيع المعرفة بالشعوب الإسلامية، وكانت المصادر الثقافية العربية تشــكل ركناً أساسياً من مصادر معرفة شعوب القوقاز وآسيا الوســطى وحــتى الروس، هذه المعرفة التي انعكست بشكل إيجــابي لمصلحة روسيا كما يعترف بذلك المستعربون أنفسهم (كنا نعيش جنباً إلى جنب مع شعوب آسيا الوسطى لمدة طويلة وكــانت معارفنا تزداد بهذا التعايش... كنا نتطور تحت تأثير الشــعوب الإسلامية وأظن الشعوب الإسلامية في بلادنا كانت تتطور تحت تأثيرنا).

لقــد كــان للاســتعراب الروســي منذ البداية مدرستان مــتمايزتان، ارتبطت إحداهما بوزارة الخارجية الروسية، وقد ســاهمت هــذه المدرسة في خدمة القرار السياسي والمصالح

الروسية الخارجية (كان هناك أيضاً في روسيا اتجاه للدراسات الشــرقية لأغراض سياسية، مع تعصب ديني، ولكن في نفس الوقــت. كان هناك من هو ضد هذه التيارات المتعصبة وضد الدراســات الشــرقية الكنيسية غير الممتدة إلى وقائع تاريخية ثابــتة، ونحــن لا نــرى هــذا في أي دراسات شرقية خارج روســيا)[23] والمدرسة الأخرى حملت الطابع المعرفي العلمي الــبحت، وحرص المستعربون فيها على استقلالية عملها وقد نشــأت هذه المدرسة وما زالت في بطرسبورغ، حيث (بذلت جهود كبيرة من قبل العلماء في بطرسبورغ لتحقيق درجة من الاســتقلال المهــني ونشــر الدراســات بعيــداً عن التوجه السياسي).[24]

وفي بداية الاستعراب الروسي، تمت الاستعانة بعلماء من الغــرب، كمــا كان الشأن بالنسبة للمجالات الأخرى المختلفة، فعــندما بــدأ القيصــر بطرس الأول الإصلاحات في السياسة والعــلوم والجيــش ومختــلف أوجه الحياة في روسيا، استعان بالخــبرات الأوروبيــة مــن فرنســا وألمانيــا وإنكلترا، ولكن الاســتعراب الروســي مالبث أن أخذ بتكوين نفسه معتمداً على المصــادر الشــرقية الإسلامية مباشرة، بداية من خلال التبادل الــثقافي الذي جرى والمعايشة المباشرة للموظفين والعسكريين الــروس فــي مــناطق الفولغــا والبحر الأسود والقوقاز وآسيا الوسطى، ووصف هؤلاء هذه البلاد في الكتب والصحف شعراً

---

(23) بتروفسكي

(24) بتروفسكي.

ونثراً، إضافة إلى توافد أبناء هذه المناطق إلى بطرسبورغ وموسكو وتعلمهم في جامعاتها ومعاهدها، وقد كان هؤلاء الوافدين يعكسون قوة تأثير الثقافة العربية الإسلامية (فإن قوة تيار التراث العربي القديم في القوقاز استطاعت أن تحمل حتى أيامنا، اللغة العربية الفصحى التي لا تستخدم في التخاطب العام في موطنها في البلاد العربية، أما في شمال القوقاز فقد عاشت اللغة العربية حياة كاملة لا في الكتابة فحسب، بل وفي الحديث أيضاً)[25]. لقد كان للشعوب الإسلامية في وسط آسيا واحتكاكها المباشر مع الروس دوراً كبيراً في الاستعراب الروسي، إذ ساهمت في نقل الثقافة العربية الإسلامية مباشرة إلى الاستعراب الروسي دون المرور بالمصفاة الأوروبية الغربية، لقد صب التراث العربي الإسلامي مباشرة في مجرى الاستعراب الروسي دون تشويه أو إنشاء أو أسطرة صور وهمية عن الشرق العربي المسلم، وقد ساهم وجود المستعربين من العسكريين في القوقاز في ترجمة العديد من الآثار الأدبية العربية الإسلامية، إذ قام الجنرال بوغوسلافسكي بترجمة القرآن الكريم من العربية إلى الروسية مباشرة.

مصادر الاستعراب الروسي:

لقد استقى الاستعراب الروسي معرفته من خلال مصادر عديدة، تفاوتت في أهميتها وزمنها، بالنسبة لهذا الاستعراب ويمكن القول بأن هذه المصادر كانت:

---

(25) *ص 196 مع المخطوطات العربية ـــ كراتشكوفسكي.*

أ ــ التجار والرحالة والحجاج المسيحيين الوافدين إلى بيت المقدس.

ب ــ المعرفة المباشرة للشعوب الإسلامية الواقعة ضمن الدولة الروسية.

ج ــ العــلماء الباحــثين من الروس والعرب على حد ســواء، الذين رحلوا إلى البلاد العربية أو العرب الذيــن قدمــوا إلى روســيا لأسباب مختلفة منها السياسة ومنها العلمية.

د ــ المخطوطــات التي انتقلت إلى خزائن المكتبات في روسيا، والتي كانت تمثل التاريخ الحضاري للثقافة العربية الإسلامية.

هـــــ- العلاقــات بين الكنيسة الروسية الأرثوذكسية مع الكــنائس الأرثوذكسية في الشرق العربي، فلسطين، لبــنان، وغيــرها، ووجود بعض المدارس الروسية المرتبطة مع هذه الكنائس، وإن كان ذلك بنسبة قليلة قياســاً للحضــور الأوروبي الغربي التبشيري في البلاد العربية الإسلامية.

إن بــدء العمل الرسمي والمنظم في الدراسات العربية ــ الإســلامية، كان قد بدأ مع عهد القيصر بطرس الأكبر عندما تمــت أول تــرجمة لــلقرآن الكــريم عام (1716) إلى اللغة الروسية، وقد قام بها الدكتور بيوتر بوستينكوف عن الترجمة الفرنســية للمستشرق الفرنسي ديوري عام (1643م)، تلا ذلك

تــرجمة أخــرى عام (1776م)، ولكن أول ترجمة للقرآن من اللغة العربية مباشرة إلى اللغة الروسية كانت في عام (1878 م)، والتي قام بها المستعرب سابلوكوف (1854 ـ 1880م)، والـذي كان يتقن العربية إتقاناً جيداً، وقد تكررت طباعة هذه الـترجمة فـي أعـوام (1879-1898)، كمـا قام الجنرال المسـتعرب بوغوسلافسكي، المراقب الملازم للزعيم الأواري شـامل، والذي عمل فيما بعد في السفارة الروسية في تركيا، قـام بترجمة للقرآن من العربية إلى الروسية مباشرة في نهاية العقـد العاشـر من القرن التاسع عشر، وهي الترجمة الثانية لـلقرآن مـن العربية إلى الروسية مباشرة خلال القرن التاسع عشـر، كما قام المستعرب أغناطيوس كراتشكوفسكي بترجمة أخرى للقرآن من العربية مباشرة إلى الروسية عام (1963م).

وقـام المسـتعرب موخلينسكي (1808 ـ 1877م)[26] بـترجمة وتفسير القرآن إلى اللغة البيلاروسية والبولندية من أجل التتار المسلمين الذين كانوا على حدود بيلا روسيا وبولندا وليتوانيا.

تمت أول طباعة للقرآن باللغة العربية، في عهد القيصرة ايكاترينا الثانية في القرن الثامن عشر عام (1787م)، إذ برز في هذه الفترة اتجاه لتنصير المسلمين بالقوة من قبل المبشرين مـن إنكلترا واسكوتلندا، فتركت ايكاترينا أمر التنصير إرادياً لمـن يشـاء مـن المسـلمين، وقامت بطباعة القرآن لتقديمه للشعوب الإسلامية الواقعة ضمن الإمبراطورية الروسية وتمت

---

(26) فرالوفا.

إعــادة هــذه الطــبعة فــي أعوام (1793، 1790م). وكان المستشـــرق كانتمير (1673ـ1723م)، قد أدخل أول مطبعة ذات حروف عربية إلى روسيا، تم بواسطتها طباعة أول بيان رســمي للقيصـــر في عام (1722م). ومن الجدير ذكره، أن القيصـــرة ايكاتريـــنا الــثانية، كانت تحظى باحترام الشعوب المســلمة ضــمن الإمــبراطورية الروســية وقد اتصلت هذه الإمــبراطورة بعلماء من دول مختلفة، كان منهم جمال الدين الأفغــاني (1838 ، 1897م)، الــذي قضى عدة سنوات في بطرســبورغ، قبل أن يذهب إلى إنكلترا وقد كان يعرف اللغة الروســية. وفــي عهد القيصرة بُدئ بتدريس اللغة العربية في المدارس المختصة بتعليم اللغات الشرقية، إلى جانب البخارية والتــترية والفارســية، وذلــك بعــد قــرارها الصـــادر عام (1772م) القاضي بتدريس اللغة العربية، وهنا نلاحظ أن قرار تدريــس الــلغة العــربية في المدارس المختصة، كان قراراً حكومياً ولم يكن قراراً كنسياً، كالذي حدث في مجمع فيينا.

ومفهــوم اللغات الشرقية في الاستعراب الروسي يختلف عــنه فــي الاستعراب الأوروبي الغربي فاللغات الشرقية في أوروبا، كانت اللغات السامية والمكانة الأولى بين هذه اللغات كــانت للغة العبرية كونها لغة الكتاب المقدس، أما في روسيا، فالــلغات الشــرقية تعــني لغات الشرق المسلم الواقع ضمن الامبراطورية الروسية أو المتاخمة لها، وشغلت اللغة العربية المكانة الأولى بين هذه اللغات. أما (العصر الجديد للاستعراب الروسي فيبتدأ من المرسوم الجامعي سنة (1804م)، لأن هذا

المرســوم أدخــل تدريس اللغات الشرقية في برامج المدارس العــليا وأســس الأقسام الخاصة لهذه اللغات)[27]، وأنشئ أول قســم لــلغة العربية في جامعة خاركوف بعد صدور المرسوم مباشــرة، وكان أول أستاذ يدرس اللغة العربية في هذا القسم ســنة (1805م). هــو الأستاذ (بيرندت)، (وكان يمثل التقاليد الســامية الأوروبيــة الغــربية، وهــو مــن رجــال الديــن المســيحي).[28] وتبع ذلك إنشاء قسم اللغة العربية في جامعة قازان في تتارستان، وقد قام بتدريس اللغة العربية فيما بعد في هــذه الجامعة عدد من الأساتذة العرب، فقد درّس فيها، أحمد ابــن حسين المكي، منذ (1852ـ 1854م)، ثم جاء بعد ذلك العــربي الفلســطيني بندلي بن صليبا جوزي منذ (1871 ـ 1942م)، وهو من القدس، ولد وتعلم بها وكان هذا الأستاذ قد تعــلم في مدينة قازان وحصل على دبلوم الدراسات العليا منها وحصــل عــلى رســالة الدكــتوراة سنة (1899م) في (فكر المعــتزلة)، وكــتب مقالــة (القرآن الكريم)، لموسوعة دينية أرثوذكســية، كمــا ألــف كــتاباً مدرسياً لتعليم اللغة الروسية لــلعرب، وألــف كذلك قاموس (روسي ـ عربي)، كما كتب (أبحاثــاً قيمة في مصادر عربية مهمة لتاريخ القوقاز، ومنها حــركة بــابك الخرّمي، وحلل أخباراً في غزو الروس لمدينة (بــردعة) فــي جــنوب أذربيجان وترجم إلى اللغة الروسية ((مقــتطفات مــن تــاريخ أذربيجــان)) مــن كتب اليعقوبي

---

(27) *تاريخ الاستعراب الروسي ـ كراتشكوفسكي ـ ترجمة فرالونا.*

(28) *نفس المصدر.*

والبلاذري).[29]

ولــه من الكتب أيضاً (من الحركات الفكرية في الإسلام) و(تــاج العروس في معرفة لغة الروس) و(أصل الكتابة عند العــرب) و(جبل لبنان، تاريخه وحالته الحاضرة). وقد عاش جــوزي طوال حياته في روسيا، وأهميته تنبع من كونه ألف عــدداً كبيراً من المقالات وترجم مقتطفات من مصادر عربية مهمة لتاريخ القوقاز.

فــي عام (1819م)، تأسست جامعة بطرسبورغ، والتي ابــتدأ تدريس اللغة العربية فيها منذ ذلك الوقت، وكان الشيخ المصــري محمــد عياد الطنطاوي، أول عربي يشغل كرسي الــلغة العــربية فــي هــذه الجامعــة بين أعوام (1847 ــ 1861م)، وقد شغله قبله الفرنسي ديمانج (1819 ــ 1822م)، والبولــندي سنكوفســكي (1822 ــ 1847م)، لقــد تفــتحت شخصــية الطنطاوي العلمية في القاهرة في الأزهر، إذ يقول فــي رســالة بعــث بها إلى المستعرب فرين (فكان مكثي في مصــر من سعادتي فحينئذٍ حضرت في النحو والفقه وغيرها ولاشــك أن تعلم الثلاث سنين في طنطا أكسب لي بعض فهم، فكــنت أفهم خصوصاً النحو وغيره أكثر من الفقه، فحضرت الأجــرومية وشــرح الشيخ خالد، وشرح القطر وشرح الألفية لابن عقيل وشرحها للأشموني، وشرح مختصر السعد في علم المعــاني والــبيان والبديع وشرح مطوله كذلك، وشرح جمع الجوامع في علم أصول الفقه وشرح السنوسية في علم التوحيد

---

[29] *تاريخ الاستعراب الروسي- ترتشكوفسكي.*

وشرح الجوهرة فيه الخ، وغالب حضوري على الشيخ إبراهيم الباجوري وهو اعلم أهل الأزهر الآن بلا نزاع))..

ثم عبرت هذه الشخصية إلى بطرسبورغ عاصمة روسيا القيصرية، لتقدم عصارة العلم والجهد في تعليم الآداب العربية الإسلامية وليتم على يدي الشيخ محمد عياد الطنطاوي تخريج عدد من المستعربين الروس، كانوا الأساس في تكوين مدرسة الاستعراب الكلاسيكية، فقد تتلمذ على الطنطاوي المستعرب (نقولا موخن) وغيره، وقد احتفل الأعلام الروسي بالطنطاوي عندما قدم إلى بطرسبورغ وكتبت عنه مقالة عرَّفت به في صحيفة (أخبار سانت بطرسبورغ) في 22 آب عام 1840م، وَرَدَ فيها (تسألني عن هذا الرجل الوسيم في حلته الشرقية وعمامته البيضاء ولحيته السوداء كالقطران، وعيونه الحية المتقدة شرراً ووجهه المعبر الذكي المحترق لا بشمسنا الشمالية الباهتة... الآن تستطيعون تماماً أن تتعلموا التحدث بالعربية دون أن تسافروا من بطرسبورغ)[30]، وبيَّن كاتب المقال أن هذا الرجل هو الشيخ محمد عياد طنطاوي الذي رحل من (شاطئ النيل) ليشغل الكرسي الخالي للغة العربية في معهد اللغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية وقد وصفه كراتشكوفسكي بقوله: (فيا لها من زهرة نادرة تلك الشخصية التي تلألأت في روسيا القديمة)[31]. وقد جمع الطنطاوي خلال فترة عمله مجموعة من المخطوطات تقارب المائة

---

[30] *ص 143 مع المخطوطات.*

[31] *ص 144 نفس المصدر.*

وخمســـين مخطوطة آلت إلى مكتبة جامعة بطرسبورغ، وحلً جــزء منها في نطاق الاستخدام العلمي، كما اهتمت الأوساط الاســتعرابية الغربية بالطنطاوي، ففي عام 1944 كتب محرر الطــبعة العالميــة المشــهورة لدائرة المعارف الإسلامية التي تجــدد صــدورها بعــد الحــرب العالميــة الأولى طالباً من كراتشكوفسكي أن يكتب له مقالاً عن الطنطاوي.[32]

وللطــنطاوي العديــد من المؤلفات المحفوظة في مكتبة المخطوطــات فـــي جامعة بطرسبورغ، بعضها كتبه لغايات تعــليمية مثل (نظم تصريف الزنجاني)، و(تقييدات على شرح الأزهــرية)، و(حاشية الكافي في العروض والقوافي)، و(نبذة عــن تاريخ العرب)، و(حال في الأعياد والمواسم في مصر) و(فهــرس الخــلفاء والسلاطين) و(القاموس التتري العربي)، وكــان الــبعض الآخــر من مؤلفاته تأريخاً لأحداث مختلفة عايشـــها خـــلال فــترة وجوده في روسيا مثل (تاريخ خمس وعشـــرين سنةً من تتويج أبهة قيصر الروسيا نيقولا الأول)، و(تــاريخ جــلوس أبهـــة القيصـــر اسكندر الثاني على تخت روسيا)، وغير ذلك، ولعلنا نستطيع القول بأن أول دراسة في الاســتغراب قام بها عالم عربي نستطيع أن نردها للطنطاوي، وذلك من خلال مؤلفه الذي كتبه في وصف روسيا وأهداه إلى الســلطان عــبد المجيد، وأسماه (تحفة أولي الألباب في أخبار بــلاد روســيا)، وقد كتبه في عام (1850 مــ 1266 هــ)، ويتــناول فـــي الكتاب وصفاً تفصيلياً لرحلته من القاهرة إلى

---

[32] *ص 147 مع المحفوظات.*

بطرســبورغ، ومــتحدثاً عــن انطباعاته خلال العشرة أعوام الأولى الــتي قضـــاها فـــي روســيا، علماً بأنه سبق مؤلف الطــنطاوي هذا مؤلف أقدم منه في وصف روسيا، هو كتاب (وصــف الروســيا) للــبطريرك مكاريوس الإنطاكي، يصف رحلــته مــن سوريا إلى روسيا، والعودة منها والإقامة فيها، وكتبه ابنه بولصي الحلبي عام (1700م)، الذي كان مرافقاً له في هذه الرحلة.

وتعود أهمية كتاب الطنطاوي إلى طول إقامته في روسيا ومعايشــته اليوميــة لــلروس واهتمامه بالتفاصيل والحوادث المختــلفة التي استمرت عشرة أعوام كاملة، مكنته من دراسة الحيــاة فــي روسيا دراسة دقيقة، إضافة، إلى أن هذا الكتاب يصدر عن عالم شغل مناصب هامة في البيئة العلمية الروسية فإذا نظرنا إلى بعض عناوين مؤلفاته عن روسيا.

غيــر ذلــك الكتاب لوجدناه يصف ويؤرخ حوادث مثل (تاريخ قدوم سعادة ولي عهد روسيا الأمير اسكندر مع خطيبته الأميــرة ماريا وتزوجها)، و(تاريخ رجوع الدوق مكسميليان لهســتنبرغ مــن مصــر إلى بتربورغ) مما يعطينا فكرة عن الاهتمام الدقيق بتفاصيل ماكان يجري في روسيا آنذاك.

إن أهميــة الطــنطاوي تنبع من أنه كان معلماً ومتعلماً، فــاعلاً ومتأثراً، ولعله أهم شخصية علمية عربية تواجدت في روســيا فــي القــرن التاســع عشــر وأثرت تأثيراً فعالاً في الاستعراب الروسي، وبنفس الوقت درست ووصفت الحياة في روســيا مــن خــلال مؤلفاتــه المختلفة، وقد منحته الحكومة

القيصـــرية وســام القديسة (حنة) تقديراً لجهوده العلمية في الاســتعراب الروســي وقد علق الطنطاوي بعد تقليده الوسام، الــذي يــبدو عــلى صــدره فــي صورة رسمها لـــه الفنان (مارتينوف) علق قائلاً:

إنـــي رايت عجباً في بطرسبورغ وأنه
شـــيخ من المسلمين يضم في الصدرحنّة[33]

وقــد عــانى الطــنطاوي في نهاية حياته من الشلل في أطـــرافه الســفلية، وتوفي عام (1861م)، ودفن في المقبرة التتارية الإسلامية قرب قرية فولكفو من ضواحي بطرسبورغ وله من العمر 50 عاماً.

وتعاقب بعد الطنطاوي عدد من الأساتذة العرب لتدريس اللغة العربية وآدابها في جامعة بطرسبورغ، فكان هناك سليم نوفــل (1828 ــ 1902م)، وهو من طرابلس الشام وقد كان فــي الجامعـــة اعتباراً من عام (1860م)، وألف بعض الكتب الــتي لقيــت نجاحــاً وفي نفس الفترة درس العربية أحمد بن حســين المكــي من (1856 ــ 1858م)، ثم عبد الله كلزي (1819 ــ 1912م)، وهــو من حلب قام بالتدريس أولاً في مديــنة أوديســا فــترة قصــيرة، ثــم أمضى بقية حياته في بطرســبورغ، وقد قام بترجمة بعض أشعار الشاعر الروسي كريــلوف من الروسية إلى العربية، وله (كتاب لتدريس اللغة

---

[33] *ص 144 مع المخطوطات العربية.*

العربية ((المحادثة الروسية ـ العربية طبع عام 1868م))[34].
وإضـــافة إلى هـؤلاء الأساتذة العرب المدرسين في الجامعة، تواجدت أحياناً بعض الشخصيات العربية الإسلامية التي لعبت دوراً فـــي وسط الاستعراب الروسي فلأسباب سياسية تواجد مثلاً جمال الدين الأفغاني (1838 ـ 1897م)، والذي اتصل بالقيصـــرة ايكاتريـــنا، ومكث في روسيا مدة أربعة أعوام ثم غادرها إلى إنكلترا، ثم ولنفس الأسباب قدم الأديب والصحفي والسياسي العربي رزق الله حسون (1825 ـ 1880م)، هرباً مـــن الاضطهاد التركي واصلاً روسيا عام (1868م)، أملاً فـــي مســاعدة قيصر روسيا السكندر نيقولا ييفتش في إقامة دولة عربية، وقد مكث حسون في روسيا عدة سنوات، وعندما يئس من مساعدة القيصر الروسي غادر إلى إنكلترا، وفي فترة وجـــوده في بطرسبورغ، نظم حسون العديد من الأشعار التي حفظـــت فـــي ديوان كما قام بنسخ بعض المخطوطات العربية الموجـــودة فـــي مكتـــبات بطرسبورغ فقد نسخ لنفسه في عام (1867م)، نسخة من مخطوط ديوان الأخطل الأموي، وتمت الاســـتفادة فيما بعد من هذه النسخة في تحقيق ديوان الأخطل وطباعـــته فـــي بيروت، في إطار التعاون بين العلماء الروس والعـــرب، كما ترجم حسون أشعار (كريلوف) في الحكمة إلى الـــلغة العـــربية، وقد تحدث كراتشكوفسكي عن حسون[35]وقد تحدث كراتشكوفسكي عن حسون قائلاً:

---

[34] *تاريخ الاستعراب الروسي.*
[35] *ص 21 مع المخطوطات العربية.*

(كـان خطاطاً وسياسياً وشاعراً ومغامراً، وقد كان قومياً عـربياً، فخاف على حياته وهرب من تركيا إلى روسيا عبر بـلاد القوقـاز، ولـم يكـن ذلك على ما يبدو بدون مساعدة ديبلوماسـي روسـي فـي القسـطنطينية هـو الجـنرال يوغوسلافسـكي، وكـان حسـون قـد قضى عدة أعوام في بطرسـبورغ حـاول أثناءها في بساطة أو سذاجة أن يحصل عـلى مساعدة القيصر الكسندر الثاني في تأسيس دولة عربية مسـتقلة، وعـندما دبّ إليه اليأس والقنوط في محاولته تلك، رحـل حسـون إلى إنكلـترا، وهـناك استخدم الهجاء اللاذع وكلماته الملتهبة في الكفاح ضد السلطان التركي وحزب تركيا الفـتاة، وتوني حسون في انكلترا في ظروف غامضة، ويقال أنـه مات مسموماً عن طريق جاسوس للسلطان التركي. وقد كـان حسـون محباً للأدب وعالماً به، وقد زينت الكتب التي كتـبها بخطه الجميل خزائن المحفوظات المختلفة، وكذلك قام حسـون بترجمة أصيلة جداً لبعض أشعار الحكمة التي نظمها كريلوف الشاعر الروسي ونقلها من الروسية إلى العربية)[36].

وفـي بداية القرن العشرين حرر المصري محمد طلعت، جـريدة عـربية باسم (التلميذ)، في بطرسبورغ، ونشر كتاباً صغيراً يصف فيه انطباعاته عن روسيا.

وفـي عـام (1818م)، تأسس في بطرسبورغ المتحف الأسـيوي الـتابع لأكاديميـة العلوم، ولم يكن متحفاً بالمعنى المعروف، فقد كان لا يخزن إلا الكتب والمخطوطات الشرقية،

---

[36] ص 144 مع المخطوطات.

وقــد أصبح هذا المتحف اعتباراً من سنة (1938م)، يعرف باسم معهدالاستشراق، وكان أول أمين لهذا المتحف المستشرق خ.د.فــرين. الذي-يدين له الاستعراب الروسي بإرساء أسسه الأولى.

وقــد تــم فــي المــتحف الآســيوي طــبع أول فهرس لــلمخطوطات العــربية، للمســتعرب الألماني برنارد دورن (1805 ــ 1881م)، الــذي كــان يتقن اللغة العربية ولغات شــرقية أخــرى ولــد وتعــلم في ألمانيا واستقدمته الحكومة القيصرية للتدريس في خاركوف عام (1829م)، ثم انتقل إلى بطرســبورغ وتــولى الإشراف على مكتبة المتحف الآسيوي والمكتــبة القيصــرية. وفهــرس دورن، أســبق من فهارس بروكــلمان، ولــم يكن حاجي خليفة قد أكمل فهارسه بعد عن المخطوطات العربية عندما ظهر فهرس دورن وكان الفهرس بعــنوان (فهــرس المخطوطات الشرقية في المكتبة القيصرية العامة في سانت بطرسبورغ)[37]، وصدر عام (1865م)، وله (فهــرس الكــتب العــربية والفارسية والتركية المطبوعة في الأســتانة وفــي مصــر وفي العجم الموجودة في دار الآثار الأسيوية).[38] عام 1825م.

كمــا أعــد المســتعربان ف.ر. روزن وسالمان، فهرساً لــلمخطوطات العــربية والفارســية والــتركية فــي جامعة

---

[37] ص 114 المجلد الخامس ــ مقتطفات من المؤلفات الكاملة لكراتشكوفسكي.

[38] ص 65 تاريخ التراث العربي فؤاد سزكين.

بطرسبورغ عام 1879م وقد بلغ عدد المخطوطات المفهرسة وقتئذ 300 مخطوطة.

أمـــا فـــي مدرسة استعراب موسكو، فإن اتجاه الدراسات العـــربية فـــي منتصـــف القـــرن التاسع عشر، لم يكن بنفس المســـتوى الـــذي كان عليه في بطرسبورغ، وفي تلك الفترة، انـــتقل تعـــليم الـــلغة العربية إلى الصفوف الخاصة مثل معهد لازاريف، الأرمني الذي قام بتأسيس المعهد عام (1872م) ، وتـــم فيه تدريس اللغة العربية واللغة الأرمنية وكان الغرض من تدريس اللغة العربية، تأهيل الأشخاص الذين سيوفدون إلى الشـــرق لمهمات مختلفة والغاية إتقان المحادثة العادية، ولكن هـــذا المعهـــد وغيـــره، لعـــب دوراً هامـــاً فيما بعد بالنسبة للاســـتعراب العلمي. وكان أول مدرّس للغة العربية في معهد لازرايف الأستاذ العربي مرقص الدمشقي (1846ـــ1911م)، الـــذي تعـــلم فـــي المدرســـة اليونانيـــة الديـــنية بالقرب من القســـطنطينية، وأتم دراسته العليا في كلية اللغات الشرقية في بطرســـبورغ (وعـــندما كـــان فـــي السنة الرابعة في جامعة بطرســـبورغ ســـنة (1867- 1868م) حصـــل على الميدالية الفضـــية مـــن أجل البحث الذي قدمه عن الخليفة علي بن أبي طـــالب)[39] وعـــندما تخـــرج من الجامعة كان مشروع معهد لازاريـــف قد خرج إلى الوجود، فكان مدرساً في المعهد، ثم رئيســـاً لقســـم اللغة العربية في نفس المعهد، وهو أول عربي يصبح رئيساً لقسم اللغة العربية في موسكو، والثاني بعد الشيخ

---

[39] *ص162 مقتطفات من المؤلفات الكاملة- كسرانشكوفسكي.*

الطـــنطاوي عـــلى مستوى ـروسيا. وقد بقي رقص في معهد لازاريـــف منذ (1872- 1900)، إذ غادر بعدها إلى سورية بسبب اعتلال صحته وتوفي هناك.

إن أهـــم عمـــل قـــام بـــه مرقص الدمشقي هو ترجمته لمخطوطـــة (رحلة مكاريوس الأنطاكي إلى روسيا)، من اللغة العـــربية إلى الروسية وقد طبعت هذه الترجمة عام (1900م)، وكانت المخطوطة تحوي أكثر من (555) صفحة، وهذه أول تـــرجمة لـــلمخطوطة تـــتم من اللغة العربية مباشرة إلى اللغة الروسية، إذ سبقها ترجمة من العربية إلى الإنكليزية، وبالتالي فـــإن الروس لم يتعرفوا إلىهذا الكتاب باللغة الروسية إلا بعد الـــترجمة الـــتي قام بها مرقص الدمشقي، وكان بدأ العمل في هـــذه الترجمة سنة (1881م) (وقدم جزءاً منها للتقييم إلى كلية الـــلغات الشرقية وقام بهذا التقييم المستعرب كركاس)[40]. وقد بُـــدئ بنشـــر ترجمة مرقص منذ عام (1896م)، وانتهى نشر المجلد الخامس سنة (1900م)، (وقد ساعده في هذا العمل أنه كان يعرف جيداً اللغة العربية الفصحى واللهجة السورية التي كـــانت المخطوطة مكتوبة بها).[41]، وأهمية هذا العمل بالنسبة لـــلروس، أنه يقدم لهم صورة عن التاريخ الداخلي لروسيا في تـــلك الفـــترة الـــتي قدم بها مكاريوس الحلبي إلى روسيا عام (1700م).

---

[40] ص 114 المجلد الخامس ـ مقتطفات من المؤلفات الكاملة لكراتشكوفسكي.

[41] ص 114 نفس المصدر.

وبعد مرقص الدمشقي تولى التدريس في معهد لازاربيف م. عطايـــا (1852 ــ 1924م)، الدمشقي الأصل، والذي كان مساعداً لمرقص في تدريس اللغة العربية منذ عام (1873م)، واســتمر بالتدريس في المعهد المذكور أكثر من خمسين عاماً وله كتاب مدرسي لتعليم اللغة العربية أعيد طبعه ثلاث مرات، فــي قـــازان عـــام (1884م)، وفي موسكو عامي (1910 ــ 1900م)، و لـــــه كـــتاب دراسي باللهجة السورية طبع عام (1923م)، وكذلك قاموس (عربي ــ روسي)، وقد كان عطايا مشهوراً جداً في بيئة الاستعراب في موسكو.

وهكــذا مـــارس الأساتذة والعلماء العرب دوراً مهماً في الاستعراب الروسي، من خلال تواجدهم لتدريس اللغة العربية وآدابهـــا في الجامعات والمعاهد الروسية المختلفة، ومن خلال المؤلفـــات التعليمية وغير التعليمية التي قاموا بنشرها في بيئة الاستعراب الروسي وكذلك من خلال الترجمات التي قاموا بها من العربية إلى الروسية وبالعكس وكذلك مارس بعض هؤلاء العـــلماء الاســـتعراب، لأول مـــرة كعرب ومسلمين ودارسين للآخـــر وواصفين لـــه، وذلك عندما قاموا بتأليف الكتب عن الـــبلاد الـــتي عاشـــوا فيها، ليس وصفاً جغرافياً، وإنما وصفاً حياتيـــاً يومياً، فكان العربي ذاتاً دارسة ومحللة لما حولها في البيئة الأجنبية، وبالتالي تركوا بصمات هامة فكان لمساهماتهم في الاستعراب الروسي دوراً كبيراً في تكريس صورة الشرقي المســلم فـــي وعـــي الروســـي، بـــأقل ما يمكن من الأخطاء والتشـــويهات والصـــور المغـــلوطة التي تمت في الاستعراب

الغربي، عندما مارس هذا الاستعراب دوره بصورة أحادية في إنشاء صورة الشرقي المسلم في ذهن الأوروبي الغربي.

وقد ساهم أيضاً في تكريس هذه الصورة الإيجابية للشرقي المسلم في الاستعراب الروسي وبالتالي الثقافة الروسية، ارتحال العديد من المستعربين الروس إلى البلدان العربية في أزمنة مختلفة طالبين للعلم ودارسين للحضارة والمجتمعات العربية الإسلامية، من خلال المعايشة المباشرة، ثم عادوا إلى جامعات بلادهم لتدريس الأوجه المختلفة للآداب العربية الإسلامية، والحضارة الإسلامية. وكثيراً ما عقد هؤلاء صلات وصداقات استمرت أمداً طويلاً مع العلماء والمثقفين العرب، الذين تتلمذوا على أيديهم أو تعرفوا عليهم، وتم إنجاز العديد من أشكال التعاون العلمي بين هؤلاء وأولئك.

فقد ارتحل إلى مصر سنة (1835)، المستعرب انطوني موخلينسكي(1808- 1877م)، وتتلمذ على يد العالم والشاعر عبد الرحمن الصفتي، وأهدى هذا الأخير ديوانه الشعري لموخلينسكي والمحفوظ في خزانة محفوظات مكتبة جامعة بطرسبورغ، وكتب موخلينسكي عن هذا الديوان، "هذا أثر مدرسي في اللغة العربية في القاهرة المصرية الأستاذ عبد الرحمن الصفتي، وهو الأستاذ في الأزهر، وكذلك محرر في مطبعة بولاق الموجودة بالقرب من القاهرة- وهذا الأثر مقدم هدية لتلميذه انطوني مورخلينسكي سنة 1835 في شهر يناير".

لـ كما عقد موخلينسكي، أثناء وجوده في مصر صداقة مع الشيخ محمد عياد طنطاوي ولعلها كانت سبباً في استقدام

الطـــنطاوي إلى روســـيا واستمرت هذه الصداقة أثناء وجود الطنطاوي وتدريسه في بطرسبورغ.

- كمـــا ارتحـــل في بداية العقد السابع من القرن التاسع عشر إلى سوريا ومصر ولبنان، المستعرب فلاديمير كركاس، وهـــو مـــن بيلاروسيا (1835- 1887م)، وقد أبدى اهتماماً باللهجة العامية، وجمع في فترة وجوده في سوريا ولبنان أكثر مـــن (500) مثل شعبي، وكان سباقاً بين المستشرقين الروس والغـــربيين على حد سواء إلى الاهتمام بلغة التخاطب اليومي. كمـــا أنـــه بدأ بطباعة مخطوط (تاريخ أبي حنيفة الدينوري)، وكـــان المخطـــوط قد وصل إلى مجموعة القسم التعليمي في وزارة الخارجيـــة، ومـــن ثم إلى مكتبة معهد الاستشراق، من خـــلال السفير الروسي (إيتالينسكي) في استانبول، والذي تعلم الـــلغة العربية في تركيا، وأصبح مولعاً بجميع المخطوطات. وقـــد تمت مقابلة هذا المخطوط قبل طباعته مع صورة أخرى له موجودة في مكتبة ليدن بخط المؤرخ ابن العديم الحلبي.

وقـــدم أقام كركاس في البلاد العربية ثلاث سنوات. كذلك ارتحل المستعرب كراتشكوفسكي وغيرهم كثير...

إن هذا التفاعل بين البيئة العلمية الروسية والبيئة العلمية العـــربية، انعكـــس بشـــكل إيجابي على الاستعراب الروسي، وجعل تعلم اللغة العربية وآدابها والثقافة العربية الإسلامية من قبل دارسيها الروس أقل صعوبة عندما أخذوا كل ذلك مباشرة مـــن أبـــناء الـــثقافة الإســـلامية وكذلك فقد عايش المستعرب الروســـي شخصـــية العربي المسلم عالماً ومثقفاً وإنساناً عادياً

مباشـــرة وكـــان هـــذا من أسباب عدم تشويه صورة الشرق العـــربي الإسلامي، فانتفت الأساطير والصور الوهمية، وكان فكان أن تجلى الاستعراب في أطره المعرفية الإنسانية.

لقـــد اعتبر المستعرب الروسي الكبير كراتشكوفسكي أن أهم شخصيتين أثرتا في الاستعراب الروسي هما الشيخ محمد عياد الطنطاوي ومرقص الدمشقي، يقول: (وإلى جانب عمالقة عملـــنا الاستعرابي أمثال فرين وروزن، وإلى جانب الروس، يقـــف عـــربيان عمـــلاً فـــي روسيا، أولهما الشيخ الطنطاوي المصري، وثانيهما مرقص الدمشقي)[42].

وكمـــا أثمر التعاون العلمي بين العلماء الروس والعرب فـــي تقديـــم الصورة الحقيقية الموضوعية عن الشرق العربي الإســـلامي، فقـــد ساهم أبناء العربية أنفسهم في إخراج تراثهم المخطوط إلى حيز النور، فكانت المراسلات ورحلات التحقيق العـــلمي قائمـــة باســـتمرار بين المستعربين الروس والعلماء العـــرب، فمـــن خـــلال الـــتعاون بيـــن العلماء والروس في بطرســـبورغ والعـــلماء في العرب في بيروت خرج مخطوط ديوان الأخطل الأموي إلى النور في القرن التاسع عشر، يقول كراتشوفســـكي عـــن هـــذا العمل (على أن الصعوبات لم تكن بالقليـــلة، ولاسيما الصعوبات الفنية، فقد كان من غير الممكن فـــي ذلـــك الوقت أن يرسل مخطوطنا إلى بيروت، والصور الشمسية لم تكن شائعة آنذاك. وهنا أقترح روزن حلاً للخروج

---

(42) ص 222 مع المخطوطات.

مــن هذه المسألة، وبناء على هذا أعدّ الصالحاني[43]، طبعة المخطـوط حسـب نسـخة حسون، وأرسل مسودة الطبع إلى بطرسبورغ، حيث قام روزن بمقارنتها مقارنة كاملة مع أصل المخطـوط، وأضـاف إليهـا جميـع الملاحظات والتعليقات التكميـلية وخرجت الطبعة بسرعة في بيروت، وكان قد بُدئ بطـبعها عـام 1891، وبعـد عـام انتهى طبع أربعة أجزاء تضمنت كل مخطوطنا مع تعليقات تفصيلية دقيقة وبدأ العمل فـي إعـداد الفهارس وتصحيح النص الإضافي وقد نشرهما الصالحاني كليهما في عام 1905 و1907 مستفيداً من خدمات الطباعة الفوتوغرافية)[44]

إن هـذا النص يعكس بوضوح التعاون الذي كان يتم بين العلماء العرب والعلماء الروس في تحقيق وطبع المخطوطات العـربية فـي البلاد العربية. إن تطلب الأمر ذلك وأن التراث العـربي من خلال مخطوطاته كان الاطلاع عليه والعمل فيه مـتاحاً للعلماء العرب كما هو متاح للمستعربين الروس، وهذا جعل كما قلت سابقاً، الخطأ في أقل حدود ممكنة فأبناء العربية ساهموا في تحقيق تراثهم ونشره، علماً بأن المستعرب روزن بالنسـبة لمخطوط الأخطل، كان قد بذل خمسة عشر عاماً من الجهـد فـي دراسة مخطوط الأخطل ولكنه لم يجد غضاضة، ولم يكن محكوماً بعقدة التفوق الأوروبي في التعامل والتعاون

---

(43) أنطوان الصالحاني ـــ أستاذ في جامعة القديس يوسف.- رزق الله حسون ـــ الآنف الذكر.

(44) ص 216 مع المخطوطات.

مـــع عالم عربي، وأن تسود بينهما علاقة الاحترام (وقد اتفق ظهور هاتين الطبعتين مع بداية دراستي عند روزن، فأراد أن يـــرجع مـــن جديد إلى الشاعر الذي أهداه منذ 15 عشر عاماً ليـــس بالقـــليل من الوقت والعمل وقد كان الصالحاني يحب روزن ويحترمه).[45]

إضـــافة إلى أن الاســـتعراب الروسي، لم يكن انتقائياً في تعاملـــه مع المصادر والمخطوطات العربية، وبما يوظف هذه الانـــتقائية لخدمـــة أهـــداف اســـتعمارية، كتـــلك التي كانت للاســـتعراب الأوروبي الغربي في تعامله مع التراث العربي الإســـلامي، والعـــالم العربي الإسلامي في نفس الفترة، يقول كراتشكوفســـكي (وأخذنـــا عاماً كاملاً ندرس باجتهاد القصائد البدوية الأصيلة.. التي تعكس بوضوح حياة الخلافة في القرن السابع والثامن وتعرّف جيداً بتقاليد الجاهلية برمتها)[46].

ونســـتطيع القـــول أن الاستعراب الروسي قد اختط لنفس نهجاً مغايراً، لما كان يحدث في الاستعراب الأوروبي الغربي، وأن التواصـــل بيـــن العلماء العرب والمستعربين الروس بقي مســـتمراً وفعالاً وكان أحد تجلياته الإفادة من المكتبات العربية العامـــة والخاصة، التي كانت تفتح ذراعيها للباحثين والعلماء والمســـتعربين الـــروس للإفادة منها، وإظهار التراث العربي الإســـلامي والتجـــليات المختـــلفة للحضارة العربية الإسلامية وكـــان أمـــناء هذه المكتبات وأصحابها يقدمون خدماتهم عن

---

[45] *ص 216 مع المخطوطات.*

[46] *ص 216 نفس المصدر.*

طيب خاطر.

وقـد أظهـر هـذه الصورة الإيجابية عن العربي المسلم وطـريقة تعاملـه مع العلماء والدارسين الأجانب، المستعرب كراتشكوفسـكي فيـتحدث إبـان رحلته إلى الشرق عن هذه المكتـبات قائلا: ((وكل مكتبة سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، غـنية أم متواضعة، كان لها طابعها الخاص، إلا أنها جميعها كـانت تقـابل بـترحيب زوارها الجدد، وتكشف لهم كنوزها بسعادة وطيب خاطر))[47]

وإلى جانب هذا العمل الإيجابي في الاستعراب الروسي، المنفـتح بوعـي وفهـم إنساني للحضارة والتراث الإسلامي والعـربي، فقد برز بين الحين والآخر في بيئة هذا الاستعراب مـن كـانت لهـم مواقف معادية للإسلام، سواء بين العلماء الـروس أو الأساتذة العرب، فمن العرب الذين كان لهم موقف سـلبي مـن الإسلام وكانوا في الجامعات الروسية سليم نوفل (الـذي سـمح مراراً لنفسه في كتبه بالنيل من الرسول محمد ومـن الإسـلام، وقـد احتج السفير التركي على ذلك وطلب مصادرة كتبه)[48] وكراتشكوفسكي نفسه لا يخفي امتعاضه من سـليم نوفل، الذي يراه موظفاً في الخارجية الروسية أكثر منه عالماً، على الرغم من دوره التعليمي في تدريس اللغة العربية فيقـول عـنه (وقـد حقق لنفسه في وزارة الخارجية الروسية درجـة كبيرة من الوظيفة وتسلم كثيراً من الرتب والأوسمة..

---

(47) ص 38 مع المخطوطات.

(48) ص 187 مع المخطوطات.

وصار روسياً لدرجة أن أولاده نسوا اللغة العربية، وهو نفسه انصــرف عن الاشتغال بالأدب، ولكنه نشر بعض الكتب في الفقــه الإسلامي باللغة الفرنسية، لكنها لم تكن كتباً علمية، بل اقرب إلى الكتب السياسية التي تحمل ظله)[49]

وقــد مثــلت المواقــف المتعصبة المناوئة للإسلام مجلة (التبشــير المــناهض للإســلام)، وقــد تصدى للرد على هذه المواقــف المتعصبة التي برزت في هذه المجلة ، المستعرب بارتولد (1869 ــ 1930م)، فيقول: (إن الحضارة الإسلامية هــي ظاهــرة تاريخية ليس من البساطة بمكان، لكي يتناولها المــرء بمقالــة أو بحث صغير)[50]، هذا على الرغم من أن هناك فئة وجهت الاتهام لبارتولد نفسه، في زعمه أن الرسول صــلى الله عليه وسلم قد ألف القرآن مع مسليمة الكذاب، وأن المســتعرب بيلايــف، قد ردد هذه المزاعم، وينفي هذه التهمة عــن بارتولد عدد من المستعربين، منهم المستعرب المعاصر أنــس خــاليدوف، فيرى أن هذه المزاعم ترجع إلى سوء فهم لــبارتولد فــي بحثه (مسيلمة)، فيقول: (إن بارتولد كان مفكرا حديــثاً وباحــثاً، وغيــر مســلم، فكــان أن قام بالمقارنة بين الديانــات، ومحاولــة فهــم كل شيء ضمن أصوله التاريخية والموضــوعية، وأمــا ما ردده يفغيني بيلايف المستعرب من موسكو فقد كان في إطار تقديم وجهة نظره تجاه الإسلام في إطــار حــركة انــتقاد الأديــان الــتي برزت في العشرينات

---

[49] ص 187 المصدر السابق.

[50] مجلة الفكر العربي- بارتولد والحضارة العربية الإسلامية عدد 31.

والثلاثينيات فكان أن أخذ ما كتبه بارتولد، وقدمه من وجهة النظر اللادينية هذه، وكأن بارتولد هو الذي قالها، وأظن أنه لم يكن منصفاً لبارتولد لم يكن بارتولد معادياً للإسلام، لقد كان باحثاً موضوعياً).[51]

لقد درس بارتولد (تاريخ الشرق)، في جامعة بطرسبورغ عام (1892م)، وكان (عضواً في أكاديميات مختلفة مثل تركمانيا، باكو، أذربيجان، عشق أباد، قازان، وله مؤلفات في تاريخ الإسلام والخلافة العربية)[52]. وجمعت أكاديمية العلوم في روسيا الأعمال الكاملة لبارتولد في عشر مجلدات والحادي عشر للفهارس ومنها كتاب (الإسلام)، الذي طبع عام 1918م، وكتاب (الحضارة الإسلامية)، و(العالم الإسلامي)، وغيرها.

أما في إطار المؤتمرات فقد عقدت عدد من مؤتمرات الاستعراب العالمية في روسيا، وأولها كان المؤتمر الثاني لمؤسسة المستشرقين العالميين في بطرسبورغ عام (1876م)، وكان المستعرب روزن رئيساً لهذا المؤتمر، كما عقد المؤتمر مرة ثانية في طشقند عام (1957م).

إن الاستعراب الروسي، في دراسته للشرق العربي الإسلامي كان ذا طابع موضوعي، فنظر إلى ثقافات الشعوب الأخرى نظرة مساواة، ومن منطلق المعرفة الإنسانية، ومن ميزاته أنه لم يعامل بازدراء ثقافات الشعوب الشرقية

---

[51] *لقاء خاليدوف.*

[52] *ص 63 موسوعة المستشرقين موسكو 1977 ترجمة فرالوفا.*

المسلمة، ولم يمارس عليها الوصاية أو الهيمنة.

وكان من الطبيعي أن ينعكس الانفتاح على ثقافات الشعوب الإسلامية، العربية وغير العربية والتي عبرت عنها الحضارة الإسلامية في التراث والنتاج الأدبي والفكري للمثقفين والأدباء الروس عبر المراحل الزمنية المختلفة، وبدءاً من معرفة الروس للقرآن الكريم من خلال الترجمات الأوروبية بادئ الأمر، وشكل تأثر المثقفين الروس بالتراث الإسلامي الشرقي ونظرتهم الموضوعية في التعامل مع شعوب الشرق المسلم، دوراً هاماً في رؤية الإنسان الروسي للشرق الإسلامي وتعامله معه كما شكل ذلك الأسس الراسخة للتقاليد الاستعرابية الروسية، التي يعتبر الاستعراب القائم حالياً في جامعات ومعاهد روسيا امتداداً لها لاسيما أن عدداً من المفكرين والأدباء الذين تأثروا بالحضارة الإسلامية كانوا أعلاماً ورموزاً قومية بالنسبة لروسيا مثل الشاعر بوشكين والمستعرب أغناطيوس كراتشكوفسكي.

بوشكين

والأثر الشرقي ـ الإسلامي:

تجـلت تأثيــرات الثقافة الشرقية الإسلامية لدى الكسندر بوشــكين (1799 ــ 1837م)، شــاعر روسيا العظيم والذي يحــلو للروس تسميته بــ (شمس الشعر الروسي)، تجلت هذه التأثيرات في أدبه وخاصة مجموعته الشعرية (قصائد شرقية)، وذلــك من خلال قراءته لترجمة القرآن باللغة الروسية وكان أعـد هــذه الترجمة الأديب فير يوفكين وصدرت في أواخر القرن الثامن عشر، وكذلك من خلال معايشته لشعوب القوقاز المسلم طيلة أربع سنوات هي مدة نفيه إلى الجنوب بعد صدور أمر القيصر بذلك وبوشكين شاعر وجداني (تنصاع له جميع عناصــر الوجــود.... بوشكين الثائر وسع كثيراً حدود النشر الروســي والعــالمي)[53]، يقــول بوشــكين عن تأثير العرب المســلمين في الثقافة الأوروبية (أن العرب في إسبانيا وهبوا للشــعراء الأوروبيــن الوجــدان والعفويــة في الحب)[54]. ويقول(هناك أمران أساسيان أثرا تأثيراً حتمياً على روح الحياة فــي أوروبــا وهمــا غــزو العــرب للأندلــس والحروب

---

(53) *جريدة البيان ــ فر الوفا ــ 2 أكتوبر 1989.*

(54) *ــ فر الوفا 131 ــ المؤلفات الكاملة لبوشكين ــ مجلد 11 ص 36 طبعة 1949*

الصليبية)[55]

إن بوشكين نفسه تأثر بالثقافة الإسلامية، وقد ظهر تأثره وإعجابه بالقرآن الكريم بوضوح في القصائد التي اقتبسها من الآيـــات القرآنية وضمنها مجموعته الشعرية (قصائد شرقية)، وبوشـــكين بمـــا لـــه من مكانة عظيمة لدى الشعب الروسي وتأثيـــره القوي في الأجيال المتعاقبة، وبما له من مكانة هامة فـــي الأدب العـــالمي، ســـاهم في نشر المعاني السامية للمثل الإسلامية والقيم الرفيعة التي تضمنها أدبه وكذلك في تصويره للشـــرقي المســـلم كشخصية إنسانية إيجابية فاعلة في الحياة، يقـــول بوشـــكين في إحدى قصائده التي عنوانها (قبسات من القرآن).[56]

أقســـــم بالشـــــفع والوتـــــر

أقســـم بالســـيف والحـــرب المحقة

أقســـــم بـــــنجمة الصـــــبح

أقســـــم بصـــــلاة المســـــاء.

نلاحـــظ هـــنا الأثر والاقتباس من سورة (الفجر)، يقول تعـــالى: ((والفجـــر وليال عشر، والشفع والوتر)، ونرى كيف استطاع بوشكين أن يستبدل (الواو) للقسم بكلمة أقسم مبتدئاً بها كـــل عبارة من العبارات السابقة بدلاً من (الواو) التي ترددت

---

(55) ـــ فر الوفا.

(56) ص 20 ـــ قصائد شرقية.

فـــي السورة الكريمة، وهذا يدل على فهم لما قرأه وتذوقه وأنه اســتطاع أن ينفذ إلى المعاني حتى من خلال الترجمة ويقول في نفس القصيدة: [57]

لا أنـــا لـــم أهجـــرك

مـــن تـــرى فـــي ظـــل الطمأنيـــنة

أدخـــلت محـــباً شخصـــه

وحميـــت مـــن العســـف المـــبين

ألســـت أنـــا يـــوم الســـغب

مـــن ســـقاك مياهـــاً صـــحراوية

ألســـت مـــن أعـــطى لســـانك

ســـلطاناً عظيمـــاً عـــلى العقـــول

نرى هنا أن الاقتباس تم من سورة (الضحى)، فقد اقتبس (عـــبارة لا أنـــا لم أهجرك) من الآية الكريمة: (ماودعك ربك ومـــا قلى)، واقتبس العبارات: (الثانية والثالثة والرابعة)، من قولـــــه تعـــالى: (ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى)، والعبارتين (الخامسة والسادسة) من قوله تعالى في سورة البلد (وإطعام في يوم ذي مسغبة).

يقول بوشكين في المقطع الثالث من نفس القصيدة: [58]

---

[57] ص 28 قصائد شرقية.

[58] ص 28 قصائد شرقية.

تشـــجع واهجـــر الـــباطل

أتـــبع بشـــجاعة طـــريق الحـــق

أحـــب اليـــتامى وقـــرآني

اقتبسـت هذه العبارات من سورة (العلق): (أرأيت الذي يـنهى عبداً إذا صلى)، إلى قوله تعالى: (كلا لا تطعه واسجد واقترب).

أما المقطع التالي:

يــا نســاء النــبي الطاهــرات[59]

أنــتن عــن كــل النساء مميزات

فيكـاد يكـون ترجمة لقوله تعالى في سورة النساء الآية (31): (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء)، وقوله:

فـــي الظـــل الجميـــل للســـكينة

عشـــن بتواضع. فرض عليكن[60]

أيـــتها العـــذارى الحجـــاب

فهـو مقتبس من قوله تعالى في سورة النساء أيضاً الآية (32): (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)

وقوله:

---

[59] ص 28 نفس المصدر.

[60] ص 28 نفس المصدر.

احفظـــن قـــلوبكن الآمــــنة[61]

كـــي لا تلامـــس وجوهكـــن

نظـــــرات الأرذال الماكـــــرة

مقتــبس من قوله تعالى في سورة الأحزاب الآية (28): (يــا أيهــا النــبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيما).

وفي المقطع الثاني من قصيدة (قبسات من القرآن)، يقول بوشكين:

وأنـــتم يـــا ضـــيوف محمـــد

مـــــتقاطرين إلى أماســـــيه

احترســـــوا أن لا تكــــدر

بهـــــارج الدنيـــــا نـــبيي

فـــي الشـــباب أفكـــار تـــقى

هـــو لا يحـــب المتـــبهرجين

ولا كـــلام المتكـــبرين والفارغين

شـــرفوا مأدبـــته بخضـــوع

وبعفـــــف عفيـــــف

[61] ص29 قصائد شرقية.

لقــد اقتــبس هذا المقطع كاملاً من سورة الأحزاب الآية (52): (يـــا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكـــم إلى طعام غير ناظرين انيه ولكن إذا دعيتم فادخلوا، فإذا طعمــتم فانتشـــروا ولا مستأنسين لحديث، إن ذلكم كان يؤذي النـــبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق، وإذا سألتموهن مـــتاعاً فاســألوهن مـــن وراء حجـــاب، ذلكم أطهر لقلوبكم وقـــلوبهن، وماكـــان لكـــم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً، إن ذلكم كان عند الله عظيما).

وفي القصيدة (6) يقول بوشكين:

ليـــس عبـــثاً أنكـــم ظهـــرتم فـــي الحلم لي

بـــــروؤس حـــــليقة فـــــي المعـــــركة

وســـــــــــــيوف مدمـــــــــــــاة

فـــي الأسمال، على القلاع، على الأسوار [62]

أن هـــذا المقطـــع مقتبس من قوله تعالى في سورة الفتح الآيـــة (26): (لقـــد صـــدق الله رسوله الرؤيا بالحق، لتدخلن المســـجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريبا).

أما القصيدة التالية:

انهـــــــض أيهـــــــا الوجـــــــل

---

(62) *ص33 المصدر السابق.*

فــــي كهفــك المصـــباح المقــــدس

يشــــــتعل فــــــي الصــــــباح.

بصـــــــلاة قلـــــــبية

أبعِــــــد أيهــــــا النــــــبي

الأفكــــــار الحزينــــــة

والأحــــــلام الخبيــــــثة.

بتواضــــــع حــــــتى الصــــــباح

أقــــــم الصــــــلاة

واتــــــل الكــــــتاب الســــــماوي

حــــــتى الصــــــباح.[63]

إن القصـــيدة الســـابقة مقتبسة من قوله تعالى في سورة المزمل: (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا).

وهكـــذا نرى عمق تأثر بوشكين وإعجابه بالقرآن الكريم إلى درجـــة الاقتباس الكامل لمعاني الآيات الكريمة في بعض مقاطع قصائده. وفي قصيدة (النبي)[64]

يكـــرر الشـــاعر كلمة (الصحراء) مقترنة بتراكيب مثل

---

[63] ص 35 قصائد مشرقية

[64] ص 35 قصائد شرقية.

(الظمأ الروحي) و(ارتجاج السماء) و(طيران الملائكة العلوي) مما يوحي لنا بالظمأ الروحي لمجتمع ماقبل الإسلام الذي كان يـتيه فـي ظلام الوثنية، ثم جاء الإسلام ليحدث الهزة الكبرى (ارتجـاج السماء) في تاريخ المجتمع العربي هذا الدين الذي كـان رسـالة سماوية (طيران الملائكة العلوي) وكان جبريل (الملاك) يتلو الوحي على الرسول الكريم.

وأعـتقد أن هناك مفارقة واضحة بين موقف بوشكين من القـرآن الكـريم وإعجابـه واقتباسـه من آياته وبين موقف مستشرقي أدوار سعيد ومنهم شاتوبريان الذي يقول: (لقد كان القرآن "كتاب محمد" وهو لم يحتو على أي مبدأ للحضارة، أي تعليم يسمو بالشخصية)[65] أو قول وليم روبرتسن سميث (أن هذه الديانة قد حملت تحت جناحيها كثيراً من الأفكار البربرية والباطـلة التي لابد أن محمداً نفسه أدرك أنها غير ذات قيمة ديـنية، والـتي أدخلها رغم ذلك في نظامه من أجل أن يسهل انتشار معتقداته المذهبية المعدّلة المصلحة)[66].

أمـا تأثر بوشكين بالحياة الشرقية الإسلامية فقد برز في قصـائده الـتي كتبها عندما كان في القوفاز في فترة نفيه ففي قصيدة (طلسم) المؤرخة عام (1826)، يقول:

هـناك حيـث الـبحر دوماً ينطوي

فـوق صـخور الصـحراء

---

[65] أوردها أدوار سعيد في ص 186 من كتاب الاستشراق.

[66] أوردها سعيد في ص 243.

حيـــث يشــــع الـــبدر دفـــئاً[67]

فمــن خـــلال اســتخدامه للأضداد (البحر، الصحراء)، (صـــخور الصـــحراء)، (البدر، الدفـء)، كأن بوشكين يطالبنا بفـك طلاســم غايتها فيوحي لنا بالماء (البحر) الذي يتراءى (سراباً) في الصحراء والبدر يشع (دفئاً) والمألوف أن (البدر) يوحي (بالبرودة) والشمس هي التي توحي بالدفء.

ومــن أجــواء المسلمين في القوقاز تظهر مفردات مثل (الحــريم، الطلســم، الحنان، المنعم) لتعكس الأجواء الأسرية الآمنة التي يعيشها المسلم الشرقي يقول:

فـــي أجمـل وقت من عتمة المساء

حيــث يمضـــي المســلم أيامـــه

فـــــي الحـــــريم مـــــنعما

هـــناك ســـلمتني ســــاحرة

بحـــــــــنان طلســــــــما[68]

إن هـــذه المقـــاطع تعكـــس لنا الحالة الكئيبة التي يعانيها الشـــاعر في منفاه وغربته عن وطنه في الوقت الذي ينعم فيه رب الأسرة المسلم بالدفـء في بيته، وطلسم الساحرة الحنون، لم يرتبط بالشعوذة واجتراح المعجزات، فهو لن يدفع المرض ولا المـــوت، ولن يحمل المنفي إلى الأهل والوطن، ولكنه ذو

---

[67] *ص 47 قصائد شرقية*

[68] *ص47 المصدر السابق.*

تأثير معنوي يحمي من ألم جراح الخيانة والهجر.

إن هـذه المفردات التي استعملها بوشكين في قصيدته لم تحمل لنا معنى الشرق المسلم الأسطوري، ولا الحريم المشبع بالجـنس ونـزوات الـرجال، ولكنه استعمل هذا للتعبير عن (الحـريم) بمعنى (الأسرة) ومنعماً بمعنى (آمناً مطمئناً). نفس المفـردات كـانت تعبر لدى أغلب المستشرقين الغربيين عن نزوات الشرق المسلم بحريمه (الجنس)، ومنعماً (عابثاً لاهياً)، إن شـرق بوشكين المسلم هنا هو شرق القوقاز، وفصيح هذا، وهـنا نرى أن الشرق المسلم كان شرقاً قريباً، عايشه الشاعر وأعجـب بشخصياته، فعندما يتحدث عن الحريم فهو لا يحمّل المعـاني الايهامات الجنسية، والقمع للمرأة، بحيث لا تعني إلا المـتعة فقـط. بـل هي المرآة الفاعلة في أسرتها شأنها شأن النسـاء الأخـريات، الـتي تمنح الطمأنينة والحنان إن شرق بوشـكين ليـس شرقاً متخيلاً وهمياً بل شرق يمور بالحركة ويبدع الشعراء.

أحـب القـرم أبـناءُ سـعدي

حيـث أبـدع هـنا يومـاً

فصـيح الشـرق دفاتـره

وأدهـش بقجـه سـراي[69]

وفـي قصيدة (الفارس الفقير)، نستذكر الحروب الصليبية

---

(69) *المصدر قصائد شرقية. ص51.*

ونســتذكر شخصية (بطرس الناسك) الذي لعب دوراً في تلك الحــروب الصليبية الأولى فقام بقيادة الحملة الشعبية إذ أن هذا الناســك كان قد سار إلى الأراضي المقدسة في فلسطين للحج، ولكــنه قفل عائداً إلى أوروبا دون أن يتمكن من الوصول إلى بيــت المقدس بسبب مضايقات السلاجقة) [70] وهناك روايات تقــول بأنــه تمكــن مــن الوصول إلى بيت المقدس، وشاهد مضــايقات الســلاجقة لــلحجاج الأوروبيين، وعندما عاد إلى بــلاده، قــام بتضخيم تلك الإساءات التي كانت تلحق بالحجاج وقــام بالتحريض لإشعال الحماس الديني في أوروبا لتخليص قــبر المســيح ثم قاد الحمله الشعبية الصليبية في إطار الحملة الأولى، وكــانت حملته تتكون من المعدمين وأرقاء الأرض، وكان هؤلاء يعتقدون أنه قديس وأن إرادة الله قد حلت فيه.

فيقول بوشكين في قصيدة (الفارس الفقير):

عــاش فــي الدنيــا فــارس فقيــر

صــــــــموت بســــــــيط

مظهــــره عـــــابس وشـــاحب

لكـــنه بـــروحه شــجاع ومخـــلص

كـــــان قـــــد رأى رؤيـــــا

لا يصـــــــدقها العقـــــــل

انحفـــــرت فـــــي قلــــبه

---

[70] *العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية ص154.*

بانطـــــــــــباع عميـــــــــــق

ويتابع بوشكين قائلاً:

مســـــــــــافراً إلى جـــ ــــــــنيف

عـــــلى الطــــريق عـــند الصـــليب

رأى العــــــــــذراء مــــــــريم

أم الســــــــيد المســــــــيح

مــــن حيــــنها محــــترقاً بــــروحه

لــــــم يـــــنظر إلى النســــــاء

وحـــــتى الـــــلحد لــــم يشـــــأ

أن يكــــــــــلم واحــــــــــدة

لا يــــــــني أبــــــداً يصــــــلي

لــــــلأب والابــــــن وروح القـــــدس

لــــم يحــــدث هـــــذا الفـــــارس

كـــــان إنســــــانا عجيـــــــبا

هــــــــاهم الفرســــــــــان

لــــلقاء الأعــــــداء المـــــرتعدين

فــــــي ســــــهول فلســــــطين

اندفعـــــوا داعيــــــن الســـــيدة

هـــــــــــتف بانفعـــــــــــــال

(يــانور السـماء، يــا روز القديسة).

ولكــــــن حشـــــود المســــلمين

جرفـــته مـــن كـــل الجوانـــب[71]

كيف صور بوشكين هذا (الفارس الصليبي)، لقد انصاع فــي حربه هذه لدوافع (لا يصدقها العقل)، وكان هذا الفارس (إنســانا عجيبا)، إن العجيب الآن والمدهش، وغير المنطقي، ليــس الشــرقي المسلم، وإنما هذا الفارس الأوروبي، الذي لم يكــن هناك أي مبرر عقلي أو منطقي لقيامه بهذا الغزو، وهذه الحــروب الــتي خاضها مدفوعاً برؤيا خرافية وهمية، وكان يعــتقد أنــه منتصــر لا محالــة، مدفوعاً بعقدة تفوقه ووهم انتصاره، لأن هؤلاء المسلمين الشرقيين سوف يرتعدون خوفا تحت وطأة الغزو الأوروبي الصليبي في سهول فلسطين ولكن الواقــع كــان شيئاً آخر، فقد صدم هؤلاء الفرسان الصليبيون بمقاومـــة المدافعين من المسلمين عن المدينة المقدسة في هذه الحــروب غير المبررة دينياً والتي رأى بوشكين، أنها لم تلق استجابة من السماء.

وهكــذا يصــور بوشكين، انتصار الشرق على الغرب، وهــذا مخالف تماماً لكل ما ألفناه عن صورة الشرق والشرقي المسلم في الأدب الأوروبي الغربي، وفي التراث الاستشراقي

---

[71] ص 69 قصائد شرقية.

الأوروبـــي وهنا يتمايز مرة أخرى الاستعراب الروسي. وهنا نرى كيف تأثر الأدباء الروس بالشرق ولم ينكروه أو يحاولوا ازدراءه وإذا عرفــنا مكانـــة بوشـــكين لدى الشعب الروسي وتأثيـــره الفعال والمستمر على الأجيال المتتابعة، أدركنا بعمق كيـــف تكرست صورة الشرق المسلم في وعي الروس، ومن منطلق التماثل الإنساني وليس التمايز.

وفي قصيدة (مسلم فقير): يقول بوشكين:

محمـــد، هــذا هـــو اســـمه، يـــرعى

بجـــد كـــل يـــوم الـــنحل والقطيـــع

والكـــــــــرم المـــــــــنزلي

لـــم يعـــرف مـــاهو الكســـل[72]

إن الشـــرقي المســـلم إنســـان إيجابي، مجّد مفعم بالعمل والحركة وليس الرجل الكسول الخامل المستسلم لرغباته الذي قـــال عنه سميث (مجهد، الانتقال من مكان إلى مكان بالنسبة إليـــه إزعاج صرف، وهو لا يشعر بمتعة في بذل الجهد كما نشـــعر نحن، ويتذمر من الجوع والتعب بكل قواه كما لا نفعل نحـــن وليس في وسعك أن تقنع الشرقي أبداً أنك حين تترجل عـــن راحلـــتك قـــد تكون لديك رغبة أخرى سوى أن تجلس القرفصاء على بساط فوراً وتستريح تدخن وتشرب)[73].

---

[72] *قصائد شرقية ص81.*

[73] *أوردها سعيد في ص 244 الاستشراق ل.وليم روبرتس سميث.*

والشـــرقي المســـلم عند بوشكين، كريم ومحارب شجاع متفاعل مع الحياة ومتطلباتها، فهو لايبخل على ضيوفه ويوفر لهم الإقامة والطعام، وعندما لا يكون في معركة أو عمل فهو يـــنعم بالهدوء مع أسرته التي يرعاها آمناً مطمئناً. إن قصيدة بوشكين (أسير القوقاز) تعكس هذه المعاني السابقة:

مــــــع عائلــــــته آمــــــناً

فــــــي أوقــــــات المطــــــر

يدخــــل عــــليه طــــارق مــــتعب

يجــــلس عــــلى الــــنار مــــن وجــــل

عــــندها يــــنهض رب الــــبيت

ملاطفــــاً إيــــاه بــــود وتحيــــة

ويقــــدم للضــــيف كأســــاً شــــذية

مــــن نــــبيذ لذيــــذ

وتحــت عــباءة لباد ندية، في منزل

مدخــن يــتذوق المســافر نوماً آمناً

ويغــــادر فــــي الصــــباح

المــــأوى الليــــلي المضــــياف[74]

إن الأســـير الروســـي يتحدث بإعجاب وحب عن هؤلاء

---

[74] ص 109 قصائد شرقية.

الشرقيين المسلمين:

لاحـــظ الأســـير بيـــن الجبـــليين

إيمـــانهم وعـــاداتهم وأخلاقهـــم

أحـــب بســـاطة حيـــاتهم

كـــرمهم وتعطشـــهم للقـــتال

ســـرعة حركـــتهم الحـــرة

وخفـــة أرجـــلهم وقوة سواعدهم(75)

هـــذه هـــي الصورة التي يبثها الأدباء الروس في الوعي العـــام الروســـي عن الشرقيين المسلمين، وأعتقد أنها مختلفة تمامـــاً عـــن صورة الشرقي المسلم التي يقدمها المستشرقون الأوروبيون الغربيون (والشرقيون وخصوصاً المسلمين كسالى وحياتهم السياسية نزوية مشبوبة ولا مستقبل لها)(76).

يقول شاتوبريان عن المسلمين الشرقيين: (عن الحرية لا يعـــرفون شـــيئاً، مـــن الاحتشام ليس لديهم شيء، القوة: هي ربهم).(77)

لقـــد ارتـــبطت صورة الشرقي المسلم في الآداب الغربية بشخصـــية الشـــاذ والمنحرف والكسول الهروب الماكر الذي لايـــني يخدعك ويفتك بك عند اللزوم. هذه الشخصية هي التي

---

(75) *ص 104 نفس المصدر.*
(76) *ص 192 أوردها سعيد الاستشراق.*
(77) *ص 187 الاستشراق.*

يجب أن ينوب الغرب الأوروبي عنها في اتخاذ قراراتها وتحديد مصيرها ورسم مستقبلها.

إننا عند بوشكين نرى صورة مختلفة، فالشرقي المسلم إنسان إيجابي، حركته دائمة، لا يعرف الكسل، يحل به ضيفه مساءً، فيلقى الحفاوة والترحيب، فينام مطمئناً آمناً ويغادر صباحاً متابعاً طريقه. وعندما ينظر بوشكين إلى العادات والتقاليد المختلفة لا ينكرها، فلا يصورها بالعجائبية والشاذة وإنما يحترمها، لأن الاختلاف هنا ناجم عن اختلاف الشعوب، إنه الاختلاف والتمايز المباح والأساسي في الحياة الإنسانية، الذي يفرض احترام كل شعب لعادات وتقاليد الشعوب الأخرى بغض النظر عن اللون والديانة والانتماء. إن الشرقي المسلم في قصائد بوشكين لم يمارس الطغيان تجاه الآخر حتى وإن كان هذا الآخر سبية من سبايا الخان التترية فنرى أنه ترك لها حرية العقيدة، في نفس الوقت الذي اعتنقت الإسلام سبية أخرى، ولكن ليس بدافع القسر وإنما بدافع الحب. يقول بوشكين على لسان (زريمة) الجورجية الحسناء في قصيدة (الأغنية التترية).

لم أولد هنا، بل بعيدا

بعيدا، ولكن الأيام الغابرة

حاضرة بعمق أشياؤها

في مخيلتي حتى الآن

أذكر الجبال في السماوات

السيوف العنيفة في الجبال

غابات البلوط الكثيفة

قانون آخر عادات أخرى ...

أقسمي ... (ولو أنني لأجل القرآن)

بين سبيات الخان

نسيت عقيدتي القديمة

ولكن عقيدة أمي كانت عقيدتك[78]

فهذه امرأة تركت عقيدتها القديمة (المسيحية) لأجل القرآن، دون إكراه وهذه ماريا السبية الأخرى بقيت على عقيدتها، بل وتمارس شعائرها دون خوف، أبقت على صليبها ومارست صلاتها في وحدتها:

قناديل النور الموحش

تومئ، حزيناً يبدو

وجه الفتاة الوديعة الطاهر

والصليب عنوان الحب المقدس[79]

وفي قصيدة أخرى يقول بوشكين:

بدا لي أنها وصية القدر

---

[78] ص 175 ــ 178 قصائد شرقية.

[79] نفس المصدر.

تحدثـــــت بكــــــلام صـــــريح

أيـــن اخـــتفي الخانـــات؟ أيـــن الحـــريم

الكـــــل هـــــادئ، الكــــل كــــئيب

الكـــــــــــــل تغيـــــــــــــر

ويبــــــتهج نظـــــــري الـــــــنهم

ثانيــــــــة أمــــــــواج القـــــــرم

بــــــلد ســــــاحر! مـــــتعة العيــــن!

كـــــل شـــــيء حـــــي هـــــناك(80)

إن الشـــعوب عـــند بوشـــكين تتغير وتتقدم، تتحرك إلى الأمـــام، فالـــتقدم خصيصة من خصائص الإنسانية. فلا يثبت بوشـــكين الشـــرقي المسلم عند لحظة تاريخية معينة، فهو لا يـــتحدث عن شرق سكوني، بل عن شرق حيوي حيث قانون الـــتطور والـــتغير يحكـــم جميـــع الشـــعوب، وهذا ما لم يقله المستشرق الغربي عن الشرق المسلم.

إن بوشـــكين بعـــد أن عـــايش الشرق المسلم من خلال القوقـــاز، يرى أن شرق الخانات والحريم والقصور قد تغير، لأن الشـــعوب تعيش متغيراتها وفق الأزمنة المختلفة. وينهي بوشكين القصيدة بإمكانية التعايش بين العالم الإسلامي والعالم المســـيحي، وليســـت إمكانية السيطرة والهيمنة هي التي تحكم

---

(80) ص 185 ـــ 187 قصائد شرقية.

تفكيـر الأديـب الروسي، بل إن الشعوب على اختلافها يمكن تتلاقى يقول:

ولذكـرى ماريـا البائسـة

أمـام نـافورة مرمـرية

فـي زاويـة القصـر المنعزل

وفوقهـا صـليب يظـلل

الهـلال المحمـدي[81]

هـذه هي رؤية أعظم شاعر روسي للشرق المسلم، وهذه رؤيته للإسلام وللقرآن، هذه هي الصور عن الشرق الإسلامي الـتي كرسـها من خلال شعره في وجدان الروسي المثقف، والمواطن العادي، وأورثها للأجيال المتعاقبة.

وبعـد الحديث عن نموذج من الأدباء الروس في القرن التاسـع عشـر نـرى كيـف أن موقف الاستعراب الروسي الكلاسيكي من الشرق المسلم.

---

[81] ص183 قصائد شرقية.

كراتشكوفسكي والشرق الإسلامي.

إذا كان بوشكين شاعر روسيا العظيم، فإن كراتشكوفسكي (1833-1959) يعـد بحـق، شيخ المستعربين الروس. ولد اغناطيوس كراتشكوفسكي في (فيلينوس)...

(1833 ـ 1959)، يعـد بحق شيخ المستعربين الروس أغـناطيوس كراتشكوفسـكي (1833ـ1959)، ولـد فـي (فيلينوس) عاصمة (ليتوانيا)، وعاش في طشقند مع أبيه حتى عام (1888)، وتعلم فيها، ثم أنهى تعليمه الجامعي في جامعة بطرسـبورغ عـام (1905)، في قسم اللغة العربية في كلية الدراسـات الشرقية، وكانت رسالته للماجستير عام (1906)، عـن الشـاعر (الـوأواء الدمشقي)، وخلال تحضيره لرسالة للماجسـتير فـي شـهر تموز من عام (1908)، وصل إلى بيـروت فـي رحلة إلى الشرق كان قد اقترح عليه القيام بها أستاذه المستعرب روزن (1849-1908) وفي الشرق العربي الـتقى كراتشكوفسـكي بالعديد من العلماء والأدباء والمفكرين العـرب، والمستعربين من أوروبا الغربية. ففي جامعة القديس يوسف في بيروت، التقى بالمؤرخ البلجيكي لامنس، والفرنسي رونـزفال والإيطالي نللينو، ومن العلماء العرب، التقى بالأب لويـس شـيخو، وجورجي زيدان، ومحمد كرد علي، وأمين الريحاني، وإسعاف النشاشيبي وغيرهم، واستمرت صلاته مع بعضـهم بغرض التعاون العلمي. عمل كراتشكوفسكي أمينا

لمكتـــبة اللغات الشرقية في جامعة بطرسبورغ، وأستاذاً اللغة العـــربية في نفس الجامعة وفي عام 1921 انتخب عضواً في أكاديميـــة العلوم السوفيتية وانتخبه المجتمع العلمي بدمشق عام (1923) عضـــواً فيــه. كمـــا كـــان عضـــواً في العديد من الأكاديميات والجمعيات العلمية.

لقـــد وقف كراتشكوفسكي معظم آثاره العلمية إن لم تقل كلها للآداب العربية وخدمتها وقد اهتم كراتشكوفسكي بالدرجة الأولى بالمخطوطات العربية والكشف عنها وتحقيقها فكان له الفضل في اكتشاف مخطوط (المنازل والديار) للأمير السوري أسامة بن منقذ وكذلك مخطوط (رسالة الملائكة) لأبي العلاء المعري وقام بنشر كتاب (البديع)، لابن المعتز.

وتجـــلى موقـــف كراتشكوفســـكي من الحضارة العربية الإســـلامية في كل ماكتب، وكتابه (مع المخطوطات العربية) يعتـــبر ســـيرة ذاتية له، إلا أننا نستطيع أن نعتبره الأثر الفني الـــذي قدم فيه بتنوع وغزارة مواقفه المختلفة تجاه العديد من القضايا المتعلقة بالشرق العربي الإسلامي، وأنه من خلال هذا الكتاب قدم موقفاً شاملاً من الشخصية العربية الإسلامية ومن الحضارة والتراث العربي الإسلامي.

إن كراتشكوفســـكي مـــن خـــلال المخطوطات لا يستعيد الماضـــي فقـــط، ولا يـــتعامل معـــه كحقبه ميته منقطعة عن الحاضر، وإنما يجعل الحياة تنبعث من ثنايا المخطوطات، كما تنـــبعث من شخصياتها، ضمن ظروفها التاريخية وفي تعامله مع هذه المخطوطات، ينبثق إحساس العالِم العميق بالمسؤولية

العلمية التاريخية التي تحتم عليه الموضوعية في التعامل مع التراث الإنساني بغض النظر عن جنس ودين مبدعي هذا التراث. يقول: (فما إن تتذكر هذه المخطوطات أو تهم بالحديث عنها، حتى تهب على الفور سلسلة من الأشخاص من القرون البعيدة الماضية، ومن الأعوام القريبة من حياتك الخاصة)[82].

ويقول (المخطوطات تهمس وأنا أدقق النظر فيها باهتمام)[83].

إن كراتشكوفسكي يقوم بعملية إحياء واستحضار للماضي، وربط بين الحاضر والماضي ولكنه ليس الإحياء بغرض استمرارية هذا الماضي في الزمن الحالي، وإنما إحياء غايته وضع كل حادثة في ظروفها التاريخية. إن العالِم يربط حياته بعمله العلمي ويجعله المتحكم الوحيد في حياته، ولكن المخطوطات تكون أحياناً عنيدة وتجد نفسك عاجزاً عندما تسألك بقوة وتحكم (ومن ذا الذي سيتحدث بعدك عن هذا؟ أترى أعطيناك الحق في أن تطوي هذا بانطوائك، إنها أوامر العلم الخالد على مدى القرون أوامر جدية ولسوف تنحني لهّا إرادتك في آخر الأمر)[84].

إن المستعرب هنا لا يستطيع تجنب مسؤولية علمية ملقاة على عاتقه في الكشف عن التراث الحضاري الإنساني، أياً

---

(82) *مع المخطوطات.*
(83) *ص 27 المصدر السابق.*
(84) *ص 213 نفس المصدر.*

كـــان هـــذا التراث شرقياً، أو غربياً، إسلامياً أو مسيحياً، إن منطـــلق كراتشكوفســـكي فـــي التعامل مع الدراسات العربية الإسلامية هو منطلق علمي، ولا أوامر توجهه أو تتحكم به إلا أوامـــر العلم الخالد وهنا ينفي كراتشكوفسكي إمكانية ربط هذه الدراســـات وهـــذا الاستعراب بأوامر من أي نوع، سياسية أو دينية إنه استعراب علمي، ذو بعد إنساني، ولعل هذه ميزة من ميـــزات الاســـتعراب الروسي، أنه غير مسخر إلى حد كبير لأهداف سياسية أو دينية.[85]

يقول كراتشكوفسكي (وهنا تسمع في هدوء حفيف أوراق الكـــتب والمخطوطات على المناضد وهنا أيضاً رويداً رويداً، وخطـــوة خطـــوة، وسطراً سطراً، يخلق العمل العلمي، الذي تخـــرج نتائجه من بين هذه الجدران العالية إلى تلك الشوارع المضـــطربة خـــارج جـــدران هذه المكتبة لتنشرها صفحات الجـــرائد والمجلات في كل البقاع، ولتستقر هذه النتائج أيضاً فـــي بطـــون الكـــتب على رفوف هذه المكتبة العامة)[86]، إن المستعرب كراتشكوفسكي يدرك أهمية دوره في تكوين الوعي العـــام الروســـي عن الشعوب الأخرى، وعن الشرق العربي الإســـلامي، فنـــتائج أبحـــاث المســـتعربين لـــن تأخذ طابعها الأكاديمي فقط، وإنما سيكون لها دوراً تاريخياً فعالاً في تكوين الفكرة عن الآخر والتعامل معه، لأن نتائج بحوث المستعربين ســـوف تخـــرج إلى الشارع الروسي وتكون في متناول جميع

---

[85] ص 18 نفس المصدر.

[86] ص18 مع المخطوطات.

القـــراء مـــن خـــلال الصـــحف والمجلات. وهنا يبرز الدور الإنســـاني للبحث الاستعرابي وضرورة موضوعيته في تقديم الآخر لأبناء بلده وللإنسانية، وبالتالي سيكون للاستعراب دورا مهمـــاً في التعامل الإنساني بين الشعوب، ومن جهة ثانية فإن هذه النتائج للبحوث الاستعرابية ليست آنية التأثير، وإنما سوف تـــورث للأجيـــال وســـوف تكـــون جزءاً من الأدب الفكري الإنســـاني يـــتداولونها جيـــلاً بعـــد جيل. يتم تداولها، إن هذه الأبحاث سوف تستقر في بطون الكتب، على رفوف المكتبات، وســـوف تكـــون مـــن العوامل المؤسسة لثقافة المستعرب أو الـــباحث أو القـــارئ العادي القادم. فالمستعرب إما أن يُوَرِّث الصـــورة السلبية المشوهة، وإما أن يقدم الصورة الحقيقية من خـــلال موضـــوعية أبحاثه، وبالتالي سوف تمنح هذه الأبحاث العـــلمية علاقات الشعوب طابعها الإنساني الحقيقي البعيد عن التشـــويه والتزييف المتعمد، بهدف إظهار التفوق لشعب على آخر وبالتالي تبرير السيطرة عليه كما فعل الاستشراق الغربي إلى حد كبير.

لقـــد عقـــد كراتشكوفسكي صداقات أبدية مع شخصيات مخطوطاتـــه، مـــع العـــلماء والأدباء العرب الذين أبدعوا تلك الآثـــار الفكـــرية الحضارية (أولئك الأصدقاء الذين لا يستطيع أحـــد أن ينـــتزعهم مـــنك، حتى الموت نفسه لا يملك سلطانا عـــليهم، إن فصـــولاً بأكمـــلها من التاريخ كانت مجهولة ثم انفـــتحت لـــك، وإن كـــثيراً مـــن الشخصيات قد خرجت من

صفحاتها وكأنها حية وتجسدت أمامك فرأيتها رؤية العين)[87].

إن المستعرب الروسي لا يقوم بإحياء الماضي ليجعله بديلاً للحاضر أو ليجعل الحاضر استمراراً لهذا الماضي أو إطالة له. الماضي، الذي مارس العرب المسلمون فيه دورهم الحضاري في الإرث البشري، والذي يحكم المستشرقون الأوروبيين، بأن الشخصية العربية الإسلامية قد أبدعت فعلها التاريخي وانتهت، وماتت بانتهاء الفعل التاريخي الماضي للشخصية العربية الإسلامية، وبالتالي فإن هذه الشخصية غير قادرة على ممارسة الفعل الحضاري مرة أخرى، وبالتالي فإن إحياء المستشرق الغربي للماضي العربي الإسلامي هو إحياء من باب استمرار الماضي في الزمن الحالي، وأن العرب المسلمون مازالوا يعيشون في تلك الفترة من الفعل الحضاري الذي مضى عليه قرون. أقول أن إحياء المستعرب الروسي لشخصيات مخطوطاته ليست من باب الفعل الأوروبي الغربي ذاته: وإنما من باب ربط الماضي بالحاضر، إذ عاش في الماضي الزاهي شخصياته العلمية المبدعة، وفي الحاضر الآن تنبعث الشخصية العربية الإسلامية لتمارس دورها في التاريخ الحالي، فهي ليست شخصية محكومة فقط بالماضي، وإنما هي شخصية حية تقوم بفعلها التاريخي وضمن شروطها التاريخية، فيقدم كراتشكوفسكي شخصيتين عربيتين إسلاميتين، واحدة منذ قرون من الماضي البعيد، والأخرى عايشها وتعامل معها: يقول: كراتشكوفسكي:

---

(87) *مع المخطوطات.*

(وقـد تذكـرت بابتسامة حياة التبريزي التي قضاها في بغـداد كأسـتاذ في المدرسة النظامية المجيدة، وكيف أنه بعد موتـه، كان الناس يشيرون إلى معجم كبير قد حمله أيام شبابه علـى ظهره من تبريز إلى بلاد الشام، لكي يدرس عند شاعر وعـالم مشـهور أعمى هو أبو العلاء في المعرة بالقرب من حلب، ويبدو ظهر المعجم كأنه أصابه البلل بالماء، والسبب في هـذا يرجع إلى طول الفترة التي قضاها المعجم محمولاً على ظهـر التـبريزي فأصـابه العرق الذي نتحه ظهره)[88] إن كراتشكوفسـكي يقـدم لنا الشخصية الإسلامية شخصية إنسان سـاع للعلم لا يتوانى في سبيله من تجشم عناء السفر، حاملاً كتـبه من تبريز إلى الشام ليتتلمذ على يدي أبي العلاء فالمسلم طـالب للعـلم مـتابع له هـذا عن عالم من الماضي، وعن الحاضـر، يحدثنا عن العلماء المعاصرين أحفاد أولئك العلماء الدؤوبيـن ضـمن الشـروط التاريخية، فهو يصف المكتبات العـربية خلال رحلته إلى الشرق العربي المسلم فيتحدث عن مكتـبة الأزهـر وعـن المكتـبة الخديوية وعن إتاحة فرص الانـتفاع بالمخطوطات للباحثين دون تعقيدات كثيرة في مكتبة الأزهر قياساً إلى تعليمات المكتبة الخديوية الصارمة (وها أنا أسـرع إلى مكتـبة الأزهـر والأزهـر هذا هو أكبر مدرسة إسـلامية أسست في القرن العاشر للميلاد. وفي المساء ذهبت إلى الشيخ وأخذت منه بلا صعوبات كثيرة بعض المخطوطات

---

(88) ص 23 المصدر السابق.

إلى منزلي.[89]

هــذا عن بعض مكتبات مصر وفي بيروت يتحدث عن المكتبة الشرقية في جامعة القديس. يوسف فيقول(وكان يحزنني أن أقــرأ بعــد وصف بعض المخطوطات القيمة التي أعرفها عــبارة مختصرة. Disparu durant laguerre. (فقدت في زمــن الحــرب)، إن البربرية الحديثة لم ترحم هذه المجموعة أيضــاً، الــتي كــانت في سوريا أحسن ماوجد منها من حيث ترتيــبها.. والعــادات المتــبعة فــي المكتبة أنظمة وعادات بطريــركية حقاً فلو أنني أردت أن أستعير منها أي كتاب إلى مــنزلي فإن كل مايلزمني هو أن أسجله بنفسي في دفتر كبير مــلقى مفتوحاً على المنضدة).[90] هذا جانب آخر من جوانب الشرق العربي الحديث يصوره كراتشكوفسكي إنها الاهتمامات الفكــرية وإحدى صورها المكتبات العامة، كما يصور اهتمام الأديــان، إسلام ومسيحية، بهذه الصروح الحضارية والحفاظ عــلى الكنوز القديمة المحفوظة فيها، فهذه مكتبة الأزهر وتلك مكتــبة جامعــة القــدس يوسف، والمكتبة الخديوية، ومكتبة الإســكندرية، إضــافة إلى المكتبات الخاصة مثل مكتبة أحمد تيمــور فــي مصر، والمكتبة الخالدية في القدس، وفي حلب المكتــبة المتربولية المارونية. (وكل مكتبة سواء أكانت كبيرة أم صــغيرة، غنية أم متواضعة، كان لها طابعها الخاص، إلا أنهــا جميعــاً كانت تقابل بترحيب زوارها الجدد وتكشف لهم

---

[89] ص 37 نفس المصدر.

[90] ص 34 مع المخطوطات.

كنوزها بسعادة وطيب خاطر)[91].

إن كراتشكوفسكي يعكس صورة الشرق المعاصر المهتم بالفكر والأدب والثقافة، اهتماماً رسمياً ودينياً وشخصياً، وصورة الشرقي المنفتح على الآخر، ذو الاهتمامات العلمية. إن النهضة الحديثة للشرق العربي المسلم تظهر بوادرها في كل مكان، (وفي الصيف عندما غادرت بيروت ورحلت إلى أماكن أخرى فهناك كان معلمو القرى وصحفيو المدن الصغيرة ومراسلو الجرائد وأطباء القرى كل هؤلاء قابلوني هناك بود وترحاب وكان الحوار بيننا يستغرق عدة ساعات بعد أول لقاء بهم وكانوا جميعاً يتأججون والثورة تتقد في نفوسهم وفي خيالهم حلم بالتحرر الوطني)[92]

إن كراتشكوفسكي في حديثه عن الشرق المعاصر، الشرق العربي المسلم، يقدم صورة تختلف اختلافاً كبيراً مما قدمه ورسمه الأوروبي الغربي، ففي نفس الوقت الذي تواجد فيه كراتشكوفسكي في مصر وسوريا ولبنان، كان هناك علماء غربيين مثل البلجيكي لامنس، والفرنسي رونزفال وغوتهيل، والإيطالي فيلليينو، ومارك ليدزبارسكي، إلا أن الحديث عن شخصية الشرقي المسلم، وتقديمها إلى العالم اختلفت اختلافاً بيناً، بين هذا وأولئك، إذ غالباً كان المستشرقون الأوربيون الغربيون ينظرون إلى الشرق المسلم على أنه مكان للمغامرة الجنسية والمتعة (فقد كان الشرق مكاناً يذهب إليه المرء بحثاً

---

[91] ص 38 نفس المصدر.
[92] ص 32 نفس المصدر.

عـــن تجـــربة جنسية لا تنال في أوروبا. وليس ثمة من كاتب أوروبي، أو كاتبة أوروبية، كتب عن الشرق أو سافر إليه في مرحلة ما بعد 1800م، استثنى نفسه من هذا البحث)[93]

إن شـــرق كراتشكوفسكي هو الشرق الناهض الذي يمور بالحـــركة والحيـــاة، الشـــرق المتنور حيث الصحف والكتب والمكتـــبات والمعـــلمون والأطباء، إن الشرق لم يمت بانتهاء حقـــبة حضارية، إنه ينهض ليمارس دوراً في الحياة البشرية إنـــه شرق من نمط آخر مختلف عن شرق الأوروبي الغربي الذي مازال غارقاً في سباته، الشاذ، الكسول، المنغلق، الذي لا يوحـــي بالحيـــاة فيه إلا (النقوش وزريق الطيور هما الشيئان الوحيدان في مصر اللذان يدلان أي دلالة على الحياة)[94]، إن الشـــرق المسلم عند كراتشكوفسكي ليس الشرق الذي يقصده الأوربيـــون الغـــربيون للبحث عن متع جنسية لم يتذوقوها في بلادهـــم (وبمرور الوقت أصبح "الجنس الشرقي" سلطة تعادل فـــي ســـوائيتها أي ســـلعة أخـــرى في المتناول ضمن الثقافة الجماهيـــرية، بحيـــث أن القـــراء والكـــتاب كانوا يستطيعون الحصـــول عليها إذا رغبوا في ذلك، دونما حاجة إلى الذهاب إلى الشرق)[95].

هكـــذا صور المستشرقون الأوروبيون الغربيون الشرق المســـلم، وتمت تقديم هذه الصورة للقراء وللأجيال المتعاقبة.

---

(93) ص202 الاستشراق- سعيد.

(94) أوردها سعيد- الاستشراق- ص197.

(95) ص 203 الاستشراق سعيد.

وإذا كانت هذه صورة الشرق المسلم التي ورثتها الأجيال الأوروبية عن مستشرقيها، فإن ما أورثه المستعربون الروس لخلفائهم كان أمراً مختلفاً، يقول كراتشكوفسكي في حديثه عن أبي العلاء المعري:

(وكنت قد ورثت هذا الاهتمام الشديد بأبي العلاء المعري من معلمي روزن الذي كان في آخر أيامه شغوفاً بهذا الفيلسوف المتشائم اللاذع السخرية والحقيقة أن أبا العلاء المعري ينفذ إلى أعماق النفس البشرية بتحليله الدقيق المتشائم، بابتسامة ساخرة لينة يحاول أن يكتم مرارة اليأس وسواد أفكاره)[96] إن هذا الاهتمام بالمفكرين العرب المسلمين، وبالشخصيات العلمية العربية، كان يتقاسمه المستعرب الروسي مع الباحثين العرب، حيث كان يتم النقاش وتبادل الآراء حول الموضوعات المختلفة مثار النقاش، أو المخطوطات مدار الجدل، وفي هذا لم يكن المستعرب الروسي يصدر في حكمه وآرائه على التراث الثقافي للعرب المسلمين من نظرة أحادية، وإنما من خلال الحوار مع أبناء هذا التراث أنفسهم، وهذا كما قلت مدعاة لأقل مايمكن من الخطأ من جهة، ومن جهة أخرى يدل هذا التعاون بين الروس والعرب، أن المستعرب الروسي نظر إلى رجل العلم العربي من موقع الندية والتكافؤ وليس من منطلق التفوق، ونظرة الوصاية التي انطلق منها المستشرق الأوروبي، الذي اعتبر أن هذا الشرق المتخلف، لا يملك أن يدير شؤون نفسه، فهو يحتاج لمن يفكر

---

[96] *ص 40 مخطوطات.*

عــنه ويــنظمه، لأنه غير قادر على التفكير العلمي والإبداع، ويفتقر إلى الدقة، الشرقي الفوضوي الذي عبر عنه شاتوبريان بقولــه: (عن الحرية لا يعرفون شيئاً عن الاحتشام ليس لديهم شـــيء، القوة هي ربهم، وحين تمر بهم فترات طويلة لا يرون فيهــا فــاتحين، يطبقون عدالة السماء، فإنهم يبدون مثل جنود دون قــائد، مــثل مواطــنين دون مشرعين، مثل عائلة دون أب)[97] ويقــول كرومر (قال لي سير الفرد لايل مرة إن الدقة كــريهة بالنسبة للعقل الشرقي، وعلى كل إنسان انجلو. هندي أن يتذكر هذا المبدأ الأساسي. والافتقار إلى الدقة. الذي يتحلل بســهولة ليصــبح انعدامــاً للحقيقة هو في الواقع الخصيصة الرئيســية لــلعقل الشرقي. الأوروبي ذو محاكمة عقلية دقيقة، وتقريــره للحقائق خال من أي التباس، وهو منطقي مطبوع، رغم أنه قد لا يكون درس المنطق، وهو بطبعه شاك ويتطلب الــبرهان قبل أن يستطيع قبول حقيقة أي مقولة. ويعمل ذكاؤه المــدرب مــثل آلـــة ميكانيكيــة. أما عقل الشرقي، فهو على الــنقيض مثل شوارع مدنه الجميلة صورياً، يفتقر بشكل بارز إلى التــناظر ومحاكمــته العقلية من طبيعة مهلهلة إلى أقصى درجـــة ورغم أن العرب القدماء قد اكتسبوا بدرجة أعلى نسبياً علم الجدلية (الديالكتيك) فإن أحفادهم يعانون بشكل لا مثيل له مـــن ضـــعف ملكة المنطق، وغالباً ما يعجزون عن استخراج أكـــثر الاســـتنتاجات وضـــوحاً مـــن أبسط المقدمات التي قد

---

[97] ص187 الاستشراق إدوار سعيد.

يعترفون بصحتها بدءاً)[98].

إذاً هــذا هــو العقل العربي، المحدود، الفوضوي، غير المــنطقي، الذي رآه المستشرق الغربي يقابله العقل الأوروبي الذكي، المنظم الدقيق، الذي يجب أن يقوم بعبء نهضة الشرق مــن خــلال الوصــاية عــليه واســتعماره أمــا المستعرب كراتشكوفســكي فيقــدم لنا شخصية إسلامية تعامل معها عن قــرب هــي شخصــية الشيخ المحمصاني، أحد خزنة مكتبة الأزهر، في معرض حديثه عن مخطوط رسالة الملائكة لأبي العلاء (لكن الشيء الذي لم أستطع فهمه من أمر هذه الرسالة، هــو الســبب فــي أنهــا لا تذكر إلا نادراً، ولماذا كانت نسخ مخطوطاتها الأخرى مجهولة تماماً؟ ولم أكن أنا وحدي الذي عجبت لهذا الأمر، بل قد شاركني في هذا العجب أيضاً الشيخ المحمصــاني، أحد خزنة المكتبة الذي كان يقوم دائماً بإعطاء المخطوطــات وكــنا نتحاور مراراً عن مختلف الموضوعات الأدبيــة، بــل وعن مدى صعوبة تعلم اللغة الفرنسية)[99]. إن كراتشكوفســكي قدم الشخصية العربية المسلمة هنا، شخصية إنســان ذو عقــل منفتح، يتحاور ويناقش ويتفاعل ايجابياً مع الآخــر ويطــور نفسه وينفتح على ثقافات الآخرين من خلال تعــلم لغــاتهم ومحاولــة التغــلب على صعوباتها التي كانت مشــتركة بيــن الروسي والعربي المسلم ويقدم كراتشكوفسكي شخصــيةعلمية عــربية لبيــئة الاستعراب الروسي تمثل دقة

---

[98] *أوردها سعيد في ص 69-70 الاستشراق.*

[99] *ص 41 مع المخطوطات.*

وتــنظيم العقل العربي، فيتحدث عن المراسلات التي كانت تتم بيــنه وبين العالم الأديب أحمد تيمور باشا بشأن مخطوط أبي العــلاء المعــري (رسالة الملائكة)، فيقول: (وعندما تجددت الــروابط العلمية الدولية بصعوبة وإصرار، وجدت على غير انــتظار زميــلاً في العمل متحمساً ومحباً لأبي العلاء تحمس روزن وتــلميذه الأصــغر. هذا الزميل هو أحمد تيمور باشا، المصري صاحب أحسن مجموعة خاصة من المخطوطات في القاهرة، كان قد جمعها بحب كبير وسعة معرفة كان هذا العالم كــريماً لدرجــة عجيبة فقد كشف كنوزه لمختلف العلماء من مختلف البلاد، وكان متواضعاً نادر الوجود فقد كان يجعل من نفســه زميلاً في العمل لمن يراسله من العلماء إذا أحس بأن لــدى هذا المراسل تذوقاً للأدب العربي، وكانت مجموعة هذا العــالم تحتوي مخطوطاً آخر عن (رسالة الملائكة) فبدأت بين القاهــرة وليــنغراد مراسلات حية. ومن جديد ثارت مناقشة حول مختلف الأشكال وتبيان الإشارات والافتراضات المتعلقة بها. وعلى تلك القصاصات النظيفة المستطيلة التي كتبت بخط شيخ عجوز لكن بحروف جميلة واضحة كان أحمد تيمور باشا من أسبوع لأسبوع يرسل إلي بأفكاره واقتباساته في رده على أســئلتي، أو يرسل إلي مايخطر بفكره هو نفسه، وفي كل مرة بنشوة مضطرمة كنت أفتح خطاب تيمور باشا الذي كنت أجد فيــه مراراً الجديد من الاكتشافات، بل كنت أجد أحياناً وبدون توقع شعراً وأمثالاً وأقوالاً، كنت في ذلك الوقت أشد ما أكون

حاجـــة إليهـــا لتوضـــح تلميحات أبي العلاء التي تعبنا أعواماً عديـــدة في محاولة كشفها وتبينها)[100] إن الفرق واضح جلي بيـــن تقديـــم الاستشراق الأوروبي الغربي للشخصية العربية المســـلمة، وبين تقديم الاستعراب الروسي لنفس الشخصية. إن الأول يـــورث الرغبة في التملك والسيطرة والاستعمار، لعدم كفاية العقل العربي على إدارة شؤونه وتنظيمها، يورث الثاني الـــتكافؤ فـــي التعامل والاحترام لعقول الآخرين وشخصياتهم، وإنصـــافهم من خلال التعامل من موقع التكافؤ الإنساني، الذي سمح بالتعاون العلمي بين المستعرب الروسي والعالِم العربي. إن الشخصـــية الإسلامية المحبة للعلم الواعية، لم تقتصر فقط عـــلى عدد محدد من العلماء، وإنما برز الاهتمام الثقافي حتى لـــدى أولـــئك الذيـــن يديـــرون أعمالاً ومصالح أخرى. يقول كراتشكوفسكي (فقد أردت أن أتعرف على حبيب الزيات الذي كان يعمل بتجارة الفاكهة المجففة وتصديرها إلى جميع أنحاء العـــالم ولكنه كان ينتهز كل دقيقة من أوقات فراغه ليبحث في المخطوطـــات وقد كان عالماً دقيقاً ذواقاً ومحباً للمخطوطات، وبكـــل هذه الموهبة التي أوتيها كان يختلس من المخطوطات القديمـــة صـــوراً منسية تتصل بالثقافة العربية ثم يعمل على إحيائها في مقالاته المتعددة التي طبعت في مابعد)[101].

إذن، هذه هي نماذج العقل العربي التي يقدمها الاستعراب الروســـي لقرائه، العقل الذي ساهم في إخراج تراثه المخطوط

---

[100] *ص 43-44 مع المخطوطات.*

[101] *ص 46 نفس المصدر.*

إلى النور من خلال تبادل الآراء والنقاش والتعاون العلمي مع العلماء الآخرين وإذا كان هناك ثمة عمل إحيائي للتراث العربي الإسلامي فقد قام العلماء العرب متعاونين في مرات عديدة مع العلماء الأجانب، تعاون الأكفاء لا تعاون الأوصياء. إن حرية التفكير وإتاحة حرية التعبير للعقل العربي تمت ممارستها بأوسع صورها في عصور ازدهار الحضارة العربية والإسلامية، هذا ما أراد المستعرب الروسي قوله عندما قرأ الأبيات التالية للأخطل الأموي:

ولست بصائم رمضان طوعاً ولست بآكل لحم الأضاحي

ولست بقائم أبداً أنادى كمثل العير حيَّ على الفلاح

ولكني سأشربها شمولا وأسجد عند منبلج الصباح.

فعلق عليها قائلاً (على أن الشاعر لم يعاقب على هذا الهجاء لتحريم الإسلام الخمر، وللصوم والحج والآذان، وقد هدأ غضب الخليفة ببيتين، ليسا أقل دعابة، وفيهما صور الشاعر حالته تحت تأثير الخمر. أعطتني هذه الأبيات. القدرة على فهم العلاقات الداخلية للخلافة بصورة أكبر مما أعطتني إياه بعض الصفحات عن ((تاريخ الإسلام)) للعالم ميولر، الذي قرأته أكثر من مرة.وبالطبع فإن هذه الأشعار متجاسرة ولذلك فإنها عندما ظهرت مطبوعة لأول مرة في بيروت في العقد العاشر من القرن الماضي، كان من غير الممكن أن تمر دون رقابة المطبوعات التركية، إلا بواسطة وضع نقطة على كلمة "العير" التي وصف بها الشاعر المؤذن فصارت كلمة لا تؤلم

المســلمين هــي كلمة "الغير" وهكذا كانت رقابة المطبوعات الــتركية في القرن 19 أكثر تشبثاً من خليفة دمشق في القرن الثامن)[102].

إن أحد أهداف استعراب كراتشوفسكي، هو فهم العلاقات الداخــلية فــي الدولة العربية الإسلامية، بين الإسلام والأديان الأخــرى الــتي كانت تعيش ضمن الخلافة العربية. وخلص كراتشوفســكي من هذه الأبيات إلى أن الإسلام في هذه الدولة العــربية الإسلامية أتاح الحرية الكافية للأديان الأخرى للتعبير عــن الــرأي، ومعــروف أن الأخطل كان نصرانياً. وحرية التعبير التي مارسها الأخطل إلى درجة وصفها كراتشوفسكي بأنهــا متجاســرة، أمام الخليفة المسلم، الذي يمثل أعلى سلطة ديــنية وزمنية في ذلك العصر، هذا الخليفة الذي ضمن حرية التعــبير للأدبــاء فلم يعاقب الأخطل وحُفظَتْ أبياتُه على مدى العصور، إن هذا الموقف لا يصدر عن عقل منغلق متعصب. بل عن عقل حر منفتح وقارن كراتشوفسكي موقف الخليفة مع موقــف الــرقابة التركية على المطبوعات بعد أحد عشر قرناً وبالــتالي فإن قمع حرية الرأي تهمة لا يلصقها كراتشوفسكي بــالعقل العربي المسلم في القرن الثامن، وإنما بالعقلية التركية فــي القــرن التاســع عشــر، وهــذه لفــتة عز نظيرها لدى المستشــرقين الغربيين الذين ألصقوا تهمة العقل المنغلق على ذاته وعلى الآخرين بالمسلم إطلاقاً، بغض النظر عن الشروط الــتاريخية الــتي عاشــها المســلم في الأزمنة المختلفة. إن

---

[102] ص 214 *المخطوطات*.

كراتشكوفسكي، من خلال استعرابه، يقدم حرية تفكير الأفراد فـــي الدولة العربية الإسلامية على أنها جزء من تفكير الدولة، وإتاحـــة التعـــبير الفكـــري ســـواء للمســـيحيين (الأخطل) أو للمســـلمين، ففـــي حديثه عن مخطوط (رسالة الملائكة) لأبي العلاء المعري يقول: (أصبح واضحاً لي من السطور الأولى، لمـــاذا كانت هذه الرسالة قليلة الشهرة إلى هذا الحد: فلو كان عـــند العـــرب فهرس للكتب الممنوعة والمحرمة. لاحتلت فيه هـــذه الرسالة مكاناً مرموقاً. والواقع أنها كما يبدو من شكلها تـــتحدث عن موضوعات نحوية، وتتناول أيضاً، نقطة جديرة، لهـــا اهـــتمام كـــبير مـــن الناحية الدينية، هي مسألة الصور الإعـــرابية المختـــلفة لأســـماء الملائكة مصحوبة باقتباس من القـــرآن والشـــعر، وكما هي العادة تذكر أسماء مشهورة في الأدب مـــع تـــلميحات أدبية لا تحصى، إلا أن هذا ليس سوى غطـــاء الرســـالة والشـــكل الخارجي لها أما في الحقيقة فإن الرســـالة الـــتي تبدو من الخارج رسالة نحوية: تقليدية، تخفي وراءهـــا هجاء لاذعاً، وسخرية فكرية شديدة، من فهم بعض المسلمين لحقيقة الملائكة، وهذه الطريقة الساخرة لأبي العلاء هي نفسها طريقته في رسالته المشهورة "رسالة الغفران" حيث نجـــده بســـخريته اللاذعة نفسها يتهكم بالوصف التقليدي القديم لـــلحياة بعد الموت)[103]. وكراتشكوفسكي لا يقدم للقارئ فقط مســـألة حـــرية التفكير والتعبير لدى العرب المسلمين، وعدم وجـــود تحريم أو منع للأفكار والكتب، بل ويتبع ذلك بصورة

---

[103] ص 41 نفس المصدر.

مقارنـــة لمـــا مارســـته الكنيســـة من منع تجاه نفس الأفكار المطـــروحة تقريباً لدى أبي العلاء. فيتحدث عن مخطوط وقع لـــه ويعـــود إلى العام 272هـ (وقرأت بانتباه عظيم في ذلك الكـــتاب، حيث يتحاور الشيطان مع الموت، وأدركت لماذا لم تدرجـــه الكنيســـة فـــي قانونها، ففي هذه المخطوطة تنعكس بوضـــوح قـــوي المشـــاعر الإنسانية بطريقة تخالف دستور الرهـــبان)[104]. إن كراتشكوفسكي يقدم للقارئ صورة أخرى مـــن صـــور حـــرية الـــتفكير والتعبير المتاحتين لدى العرب المسلمين فرسالة أبي العلاء المعري لم تحظ بالشهرة، إلا أنها بـــنفس الوقت قد تمت المحافظة عليها فلم تحرق، أو تمنع، أو يعاقب صاحبها، وإنما بقيت حية طيلة قرون عديدة.

إن الحديـــث عـــن حـــرية الرأي والتفكير لدى المسلمين والمسيحيين في الخلافة العربية لا يعكس فقط المناخ الإيجابي لتفتح التفكير العربي، ولكافة الأديان، فقط، وإنما يعطي صورة أيضاً بأنه لم تكن هناك مشكلة بين المسلمين والمسيحيين الذين يعيشون في كنف الخلافة العربية، ويعكس جو التسامح الديني الذي كان سائداً في المجتمع والدولة على حد سواء.

إن ديمقـــراطية التعـــبير وحـــرية التفكير في الحضارة الإســـلامية العربية هي التي أتاحت الإبداع للمفكرين والعلماء العـــرب، فأثـــروا الحضارة الإنسانية، وأصبحت هذه الحرية تقـــليداً فـــي الدولة العربية الإسلامية، إلى أن دخلت العناصر الأجنـــبية عـــلى الـــتفكير المتســـامح، فـــي عصـــور الظلام

---

[104] ص 19 مع المخطوطات.

الاستعماري، فمارست الاضطهاد الفكري.

وعـن علاقـة المسـتعرب الروسي مع العلماء العرب، يتحدث كراتشكوفسكي عن أحمد تيمور باشا (الذي كان يجعل مـن نفسـه زميلاً في العمل لمن يراسله من العلماء، إذ أحسّ بـأن لـدى هـذا المراسل تذوقاً للأدباء لعربي)، وقد اكتشف كراتشكوفسـكي نفسـه فيمـا بعـد، أن هناك مخطوطاً آخر لـ(رسالة الملائكة) موجوداً في المكتبة الخاصة لأحمد تيمور باشـا، وتمـت المراسلات بينهما حول هذا المخطوط، فكان تيمـور يجيـب عن الأسئلة المختلفة للمستعرب الروسي، أو يرسـل إليـه بأفكاره واقتباساته وآرائه بطيب خاطر. وهكذا ساهم الشرقيون أنفسهم مع المستعربين من خلال إبداء آرائهم وملاحظاتهم وتوضيحاتهم في إخراج تراثهم إلى النور.

لقـد طـابق الاستشراق الأوروبي الغربي بين شخصية المسـلم المنفـتحة فـي عصـور ازدهار الحضارة العربية الإسـلامية، وبين العقلية الإسلامية المنغلقة في زمن الاستبداد الـتركي وجعـلها شيئاً واحداً، بحيث أضحت هذه الشخصية مرتـبطة بصـفات محددة وثابتة منغلقة وغير قابلة للتطور، وأصـبح هـذا الانغـلاق والتخـلف خاصتين من خصائص شخصية المسلم الشرقي غير قابلة للتغير أبداً.

إن مـن دوافـع الاسـتعراب الروسي، فهم الشعوب و الحضـارات الأخرى، ليس بدافع غرائبية هذه الشعوب، وإنما لقناعة هذا الاستعراب بأن حضارات الشعوب نتاج المجتمعات المختـلفة تصـب فـي النهاية في مجرى التاريخ الحضاري

الواحد للمعرفة البشرية الذي تتعدد روافده بتعدد الشعوب واختلافها وتمايزها وإن دراسة حضارات الشعوب وإبداعها لا ينم عن ذوق ذاتي لمعرفة المجهول من المجتمعات الأخرى، وإنما عن إحساس بالمسؤولية تجاه ضرورة التوصل البشري الإنساني من خلال التعريف بثقافات الشعوب المختلفة، وتقريب شخصية الآخر كي لا يكون بمنأى عن الأحكام الموضوعية، وبالتالي يساهم الوهم والأسطورة في تكوين هذه الشخصية والحكم عليها فيقول كراتشكوفسكي (وإني لشديد الرغبة في أن أفهم بعمق موضوع علاقات العرب مع الشعوب المغلوبة في البلاد التي استولوا عليها، وأريد أن أفهم الروابط بين المسلمين والمسيحيين)[105].

فإذا كانت مسألة العلاقات بين المسلمين والمسيحيين لدى الاستشراق الغربي قد قيمت سلفاً، من خلال الركام الثقافي الذي أفرزته الحروب الصليبية، وقدَّم هذه الركام صورة مشوهة عن هذه العلاقات، فإن علاقات المسلمين والمسيحيين لم تكن قد قيمت في الاستعراب الروسي من خلال الحروب الصليبية. وإنما عمل المستعربون الروس بدأب لفهمها ومعرفتها من خلال دراسة المصادر الأساسية التي شكلت التاريخ العربي الإسلامي وثقافته بتجلياتها المتعددة. وتم تقييم العلاقات بين العرب وشعوب البلاد التي فتحوها تقييماً موضوعياً فعن وجود العرب في الأندلس، ودورهم في الثقافة الأوروبية وتأثيرهم الفعال، يقول كراتشكوفسكي (فعبر جسر

---

[105] *ص 30 المصدر السابق.*

العـــرب هذا دخل جميع مشاهير اليونان كأرسطاليس وإقليدس وبطليموس وغالينوس وأبو قراط إلى أوروبا، التي ما تعرفت بهـــم، إلا بواسطة نقل مؤلفاتهم من العربية إلى اللاتينية حتى جاء عصر النهضة، أما عدد المؤلفات العربية الأصل العلمية المترجمة إلى اللاتينية فكان كذلك كبيراً)[106] ويقول: (وبطرد العـــرب نـــزفت إســـبانيا دماءها)[107] إن العرب كانوا روح إسبانيا.

وعندما يتحدث عن دخول العرب إلى الأندلس، لا يصفهم بالغـــزاة، وإنمـــا يتحدث عن الفاتحين والفتح والفتوح العربية يقول: (وسرعان ما سقطت قرطبة وطليطلة في أيدي العرب، وسارت حركة الفتح إلى الشمال)[108]. ويصف خالد بن الوليد بالقـــائد الفاتح (وكان باعث هذا الإحساس ذكريات تاريخ قديم يتصـــل بالقائد العربي المشهور خالد بن الوليد فاتح الشام في القـــرن الســـابع الميلادي)[109] كما يتحدث عن ظاهرة انتشار الـــلغة العـــربية فـــي كل البلدان التي فتحها العرب المسلمون حيث: (أخضعت هذه اللغة كل العالم الذي دان بالإسلام، وهي ظاهرة نادرة نوعاً ما في تاريخ فتوح الشعوب غير المتحضرة للأقطـــار المتحضرة)[110]. إذن هكذا يقدم المستعرب الروسي

---

[106] ص 73 دراسات في تاريخ الأدب العربي منتخبات كراتشكوفسكي

[107] ص 75 المصدر السابق.

[108] ص 53 المنتخبات.

[109] ص 38 المخطوطات.

[110] ص 4 المنتخبات.

عمـلية توسـع الإسلام في مختلف أنحاء العالم، وهكذا يصف القـادة العـرب المسلمين، وشتان بين تعابير مثل (الاستيلاء) و(الغـزو) وبيـن تعابيـر (الفتح، الفاتح......)، ذلك أن هذا المسـتعرب، لا يصدر في كلامه عن موقف مسبق، ولا عن فكـرة عدائيـة ثابـتة وإنمـا يضع الأمور في نصابها، وهذا مـايجعل مـنه باحثاً ومستعرباً منصفاً، يحمل مسؤولية علمية وتاريخيـة لا علاقة لها بدوافع غير دوافع المعرفة الإنسانية. يقـول: (إنني لا أخفي أنني أردت أن أقوم بشيء من الدعاية لميـدان عمـلي، وأن أتحـدث بملء صوتي عن علم اللغات والآداب الشـرقية لقد أردت أن أبين قدر طاقتي، كيف أن ثمة أناسـاً يعمـلون في هذا الميدان، لا لمجرد أن لديهم ذوقاً ذاتياً غريـباً عـلى حد تعبير بعضهم، يجتذبهم إلى هذا العمل، وأن هـؤلاء الناس يطوفون بهذا الميدان لا بدافع الولع بالغرائب، وأنهـم ليسـوا بـزهاد وينعزلون عن الحياة)[111]. إن الدافع لاسـتعراب كراتشكوفسكي وغيره من المستعربين الروس لم يكن بدافع الولع بغرائبية الشرق وإنما هو عمل معرفي يتصل بحضـارات الشعوب الإسلامية وإذا كان الشرق عالماً عجيباً يُدرسُ لعجائبيته هذه، وللصور الخيالية التي ارتبطت في ذهن الغـرب الأوروبي عن هذا الشرق الذي كان مزدهراً، والآن أصـبح أسـطورة ميـتة لا حياة فيها، لأن سنوات الازدهار الحضاري انتهت، وانتهى معها الشرق العربي المسلم، وانتهت معهـم لغـتهم الـتي أصـبحت لغة ميتة لا تواكب تطورات

---

(111) ص 15 مع المخطوطات.

الحضارة المعاصرة. إن الاستشراق الغربي يكرس فكرة موت هـذا الشـرق حضارة ولغة وأن الغرب هو الذي سيبعث فيه الحياة. إن الشرق نفسه غير قادر على الانبعاث من جديد.

وهـنا يختـلف الاسـتعراب الروسـي عن الاستشراق الأوروبـي الغربي إذ (توجد في العائلة البشرية الكبرى، أمم يعـتقد حسب الرأي السائد بأنها لم تعد تلعب دوراً نشيطاً في الـتطور الحضـاري العـام ويورد كل باحث في هذا المجال تحفظـاً يؤكـد فيه أن موضوع بحثه يتسم بأهمية (أكاديمية)، فقط، وليس له شأن يذكر بالنسبة للواقع العصري وعندما يبدي هذا الباحث إعجابه الشديد بالماضي المجيد، غالباً ما يغيب هذا الواقـع العصري عن باله، فلا يرى، كيف تقوم، على أنقاض الماضـي، حيـاة جديدة تمنح البشرية مفاجآت لا تتميز أحياناً بصـفة أكاديميـة عـلى الإطـلاق، والعرب هم من بين تلك الأمم)[112]. إنه الشرق المتجدد (الشرق العربي الحي)[113].

---

(112) ص 8 بحوث سوفيتية في الأدب العربي.

(113) ص 62 المخطوطات.

المستعربون الروس المعاصرون:

إن الاستعراب الروسي المعاصر هو امتداد لمدرسة الاستعراب التي أسسها المستعربون الأوائل، اعتباراً من بدايات القرن الثامن عشر وحتى بدايات القرن العشرين، ويعتبر كثير من المستعربين اليوم أنفسهم خريجي مدرسة الاستعراب الروسية الكلاسيكية. وقد استمر هؤلاء بالتعريف بالتراث العربي الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية، سواء عن طريق تحقيق المخطوطات وطباعتها، أو إعداد الفهارس التي تعرف بهذه المخطوطات، أو عن طريق تأليف الكتب والدراسات المتنوعة أو عن طريق الترجمات المختلفة التي تعكس وجوه الفكر العربي الإسلامي قديماً وحديثاً. فقد قام المستعرب ميخائيل بتروفسكي، بتأليف كتاب (قصص الأنبياء في القرآن)، وكذلك كتاب (لغة الفن الإسلامي)، فدرس في الأول، ليس فقط قصص الأنبياء في القرآن وإنما أيضاً المعلومات التاريخية الواردة في القرآن، لمحاولة فهم القصص فالقرآن برأي بتروفسكي (يقدم النص لقوم يعرفون هذه القصص ويعمل على أن يقدم لهم التفسير لهذه القصص. إن القرآن له صلات واتصالات بقلب الحضارة العربية الإسلامية، والإنسان الذي لا يعيش في هذه الحضارة لا يقدر أن يفهم القرآن، حتى بمساعدة عدة ترجمات بعدة لغات، وقد حاولت في هذا الكتاب إعادة بناء المعلومات التاريخية

الموجـــودة عـــند العرب في وقت البعثة المحمدية، وهذا شيء مهـــم لـــتقدمه لـــلقراء والمثقفين في روسيا)، إن المستعربين الـــروس الآن يســـتمرون فـــي ممارسة دورهم في التعريف بالحضـــارة العـــربية الإســـلامية، أدباً وفناً، فعن كتاب (الفن الإســـلامي) يقـــول بتروفســـكي: (هـــو محاولة لترجمة الفن الإســـلامي إلى مفـــاهيم الإنســـان الذي يعيش ظروف الحياة الأوروبيـــة، وبـــرغم أن الحضـــارة الإسلامية قريبة جداً إلى الحضارة الأوروبية، فإن الإنسان في روسيا وفرنسة وأمريكا ... لا يفهمون بشكل مباشر قيمة الفن الإسلامي، وموضوعات الفـــن الإسلامي، إن أي أمريكي يفهم جيداً الفن الياباني، وكل مـــثقف أوروبـــي يســـتطيع أن يفهم جماليات الفن الياباني أو الهـــندي أو الصـــيني، أمـــا الفن الإسلامي، فإن غالبية الناس خارج العالم الإسلامي غير قادرين على استيعاب جماليات هذا الفـــن، وهـــذا شيء مؤسف، ومن واجبات وأهداف الدراسات العـــربية في روسيا كانت دائماً محاولة عبور الفرق الموجود بين الحضارات).

إن الأهـــداف المعـــرفية الإنســـانية للاستعراب الروسي تســـتمر مـــن خـــلال المســـتعربين الجدد، فتتوسع آفاق هذا الاستعراب ومهماته، لتشمل أيضاً إلى جانب الدراسات الفكرية الأدبية والثقافية المتنوعة، تشمل الفن الإسلامي والتعريف به، ليـــتمكن الأوروبي من استيعاب جماليات الفن الإسلامي الذي تشـــكل في صميم الحضارة العربية الإسلامية، وشكل منعطفاً مهماً في التراث العالمي، وتتجلى مرة أخرى، القيمة الإنسانية

للاستعراب الروسي عبر العلماء المعاصرين، عندما تستمر مهمة تقليص الفروق بين الحضارات للشعوب المختلفة من خلال التعريف بها، وكشف جوانبها المجهولة.

إن الدراسات الاستعرابية الروسية بقيت في الماضي بمنأى إلى حد كبير، عن تأثير القرار السياسي، وإنها الآن غير مرتبطة بالسياسة الاستعمارية ويعتبر المستعربون الروس المعاصرون، أن الحضارة الإسلامية في روسيا هي جزء من التراث الروسي، على الرغم من أنه في الأوقات المختلفة، برز أحياناً الاتجاه السياسي في الدراسات العربية الإسلامية، من خلال المعاهد التعليمية التي ارتبطت بوزارة الخارجية والكنيسة، والتي كانت تمثلها، في قسم منها، مدرسة الاستعراب في موسكو وبالمقابل فإن اتجاه الدراسات الأكاديمية والثقافية غير المرتبط بالسياسة، كان موجوداً ومستمراً في مدرسة الاستعراب في بطرسبورغ، حتى إبان العهد السوفييتي. فيقول بتروفسكي: (نحن شرقيون إلى درجة كبيرة ونفس الشيء مع الكنيسة، الكنيسة الأرثوذكسية الروسية كنيسة شرقية، وطبعاً الكنيسة الشرقية أقرب للإسلام وفي فهم الإسلام). رغم أنه في فترة من الفترات، كان هناك في بعض المناطق مثل قازان صراع بين الكنيسة الروسية والإسلام، ترافق مع تعصب ديني، ولكن كان يوجد دائماً من يتصدى لمثل هذه الاتجاهات، وليس فقط في الدراسات الأكاديمية، وإنما أيضاً في الثقافة الموجهة للجماهير، برز هذا الاتجاه في القرن التاسع عشر على يدي مستشرقين مثل روزن ثم

بـــارتولد، واستمر في القرن العشرين يقول بتروفسكي (عندما نجــد الأســـاتذة فـــي الجامعـــات، يكتـــبون ضد الناس الذين يســـتخدمون الدراسات الشرقية كوسيلة لخدمة الأيدلوجية، فإن هـــذا الـــتوجه، يكـــون تراثاً لنا من هؤلاء الأساتذة من القرن التاســـع عشر، لذلك ممكن القول أن دور الكنيسة الروسية في الحمـــلة ضد الإسلام، أقل بكثير من دور الكنيسة الكاثوليكية، لأن الإســـلام بالنســـبة للكنيسة الروسية لم يكن عدواً، وإنما منافســـاً، فقد كانت الدعاية ضد الإسلام (مثلاً) ضرورية، من أجـــل إقناع الناس بالمسيحية، وهذا غير مرتبط بتعصب شديد وأغـــراض سياسية واضحة، ولم يكن هذا الأمر على مستوى فكري، وإنما هو أشبه بالمباراة منه بالعداء في حرب). ويرى بتروفســـكي، أنـــه حتى في فترة العهد السوفياتي، كانت هناك دراســـات إســـلامية، تمت في مدرسة استعراب بطرسبورغ، بالـــرغم مـــن المعوقات السياسية لمثل هذه الدراسات في تلك الفترة. إلا أن المستعربين في بطرسبورغ استطاعوا أن يقدموا هذه الدراسات تحت عناوين أخرى، مثل الأدب أو الفلسفة الخ ... فكـــان هـــناك كـــتب ودراسات ونشر لنصوص إسلامية مختـــلفة، ومـــن ثم فإن اتجاه هذه الدراسات الإسلامية، أصبح أقـــوى عـــندما (أدرك المســـؤولون في موسكو، أنه من أجل القـــرارات الصـــحيحة، يجـــب معرفة ماهو الإسلام بصورة صحيحة، وليس من وجهة نظر سياسية، وأصبح هناك إمكانية لنشر الكتب والنصوص عن الإسلام) وقد تم هذا في الجامعات والمعـــاهد المختلفة في بطرسبورغ وموسكو على حد سواء. (هـــذا فـــي وقـــت كان فيه الأكاديمي بريماكوف مديراً لمعهد

الدراســات الشــرقية فــي موســكو، فقد تم نشر العديد. من المقــالات والكــتب والدراسات عن الاسلام وقمنا بنشر عدة معــاجم وكل ذلك استناداً إلى دراسات علمية). وتمت ترجمة هــذه المعــاجم إلى لغــات الشعوب الإسلامية الواقعة ضمن روسيا، فترجمت إلى الأذربيجانية وغيرها من لغات الشعوب المســلمة ويصــر المســتعربون الــروس المعاصرون على الاســتمرار في استعمال مصطلح (الاستعراب) الذي يعبر عن الدراسات العربية الإسلامية، وليس مصطلح الاستشراق، لأن الاستشــراق من الممكن أن يستنفذ غاياته وأهدافه. وكما كان هــناك استشراق في البلدان الغربية، يقول: بتروفسكي (يمكن أن يكــون هــناك اســتغراب فــي البــلدان الشــرقية). وإن الاســتعراب، هو (موضوع يمكن أن يستمر للأبد، لأن دراسة الأدب بصورة عامة، والأدب العربي جزء من التاريخ العام). ويعتبر بتروفسكي أن (التقسيم شرقي وغربي، هو تقسيم غير إنســاني)، لأن الاســتعراب الروسي، غير مرتبط بزمان أو مكــان معيــن وإنما المستعربون الروس (مرتبطين بالبشرية، بالأبدية، و المعاني الخالدة).

كمــا يعتــبر المستعرب فلاديمير بالوتسين، الباحث في معهــد الاستشــراق فــي بطرســبورغ أن المســتعربين في بطرسبورغ يمتلكون مدرسة استعراب خاصة بهم، ويعتبرون أنفسهم تلاميذ المستعرب الكبير كراتشكوفسكي يقول فلاديمير بالوتسين (منذ زمن طويل، نحن لدينا مدرسة استعراب خاصة بــنا ونعتبر تلاميذ كراتشكوفسكي، أما الباحثون الذين يعملون

فـــي مجال التاريخ المعاصر فأغلبهم في موسكو، أما نحن في بطرســبورغ فإننا نتبع طريقة كراتشكوفسكي أي الاستعراب الكلاســيكي). عــلى الــرغم من بروز اتجاه لدراسة الآداب العربية الحديثة في جامعة بطرسبورغ.

وفـــي معهد الاستشراق في بطرسبورغ، يعمل أكثر من مـــئة باحث، يدرسون الآداب الشرقية بمختلف فروعها. إلا أن الهـــدف الـــذي يوجه هذه الدراسات، هو، كما يقول بالوتسين (تلـــبية إرادة المعـــرفة)، ولا يـــنكر المستعربون المعاصرون الـــدور الفعـــال، الذي لعبته الحضارة الإسلامية في الحضارة الروســـية، يقـــول بالوتســـين (لقـــد أثـــرت الحضارة العربية والإسلامية ككل، في الحضارة الروسية، لدرجة ما كنا نعيش جنـــباً إلى جـــنب مع شعوب آسيا الوسطى لمدة طويلة وكانت معارفـــنا تـــزداد بهـــذا التعايش، وكل زيادة معرفة تساهم في تطور الشعب كنا نتطور تحت تأثير الشعوب الإسلامية وأظن الشـــعوب الإســـلامية فـــي بلادنا كانت تتطور تحت تأثيرنا)، وحـــتى اللغة الروسية يوجد بها كثير من الكلمات العربية التي عـــبرت إلى الـــتركية ومـــن الـــلغة التركية انتقلت إلى اللغة الروسية والتأثير المتبادل كان يجري دائماً.

ويـــرى المســـتعرب أنـــس خاليدوف، رئيس قسم اللغة العـــربية فـــي معهد الاستشراق في بطرسبورغ، الذي وضع فهـــارس المخطوطـــات العـــربية الموجودة في مكتبة المعهد والمطبوع بموسكو عام 1968 حيث تجاوز عدد المخطوطات فـــي فهرس خاليدوف 10500 مخطوطة كما يعتبر من أعماله

الهامة الأخيرة، تحقيقه لكتاب (الأوراق) لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي، الذي صدرت طبعته الأولى عام 1998 يعتبر خاليدوف أن عهد الاستعراب الروسي قد خطا خطوات واسعة مع المستعرب فيكتور روزن، وأن الدور الأكبر في الاستعراب الروسي كان للأكاديمي كراتشكوفسكي الذي أرسى أسسه في الجامعات، ويرى خاليدوف أن الاستعراب العملي الذي ارتبط بالقرار السياسي، فقد كان محدود الدور، وأن الدراسات الشرقية في مختلف مستوياتها كانت تنطلق من منظور إنساني. يقول (أما الاستشراق في الجامعات، فهذا موضوع علمي، أن المقارنة بين الثقافات على نفس المستوى غربية، كانت أو شرقية، صينية أو يابانية، كلها في مستوى واحد، ومن منظور إنساني). كما يرى خاليدوف أن كراتشكوفسكي قد جعل للاستعراب الروسي خصائص مميزة عن الاستعراب الغربي، إذ نأى بهذا الاستعراب عن نظرة الاحتقار التي كان ينظر بها الغرب إلى الشرق، نتيجة إحساسه بالتفوق المادي، ومن منطلق التفوق المادي هذا، استطاع الغربيون أن يدَّعوا لأنفسهم، ومن موقع القوة، حتى التفوق الروحي والثقافي على الشعوب الأخرى.

ولم يكونوا ملزمين لتخفيف عدائهم تجاه الشرق لأن الشرق كان يعيش ضعفه والغرب امتلك القوة والتطور أما المستعربة أولغا باريسوفنا فرالوفا التي شغلت مدة خمسين عاماً، منصب رئيسة قسم اللغة العربية في جامعة سانت بطرسبورغ ولها العديد من الأبحاث والكتب والترجمات في

مختلف أنواع الدراسات العربية الإسلامية. فقامت بترجمة مجموعة من قصائد الشعراء الجاهليين ومقامات الحريري وأهم كتبها الأدب العربي في سوريا ومصر في عصر النهضة، وكذلك رسالتها في الدكتوراه عن الكامل في التاريخ لابن الأثير كما ترجمت إلى الروسية مقتطفات من أعاجيب المخلوقات وغرايب الموجودات للقزويني، وكذلك معجم لياقوت الحموي، كما قامت بإعداد فهرس مخطوطات مكتبة جامعة سانت بطرسبورغ، ومن الأدب العربي الحديث ترجمت رواية زينب لمحمد حسنين هيكل وقصص لمحمد تيمور وجبران خليل جبران، وغيرهم وقد برز اتجاهها التدريسي في تدريس اللغة العربية الفصحى وقد تتلمذت فرالونا على المستعرب كراتشكوفسكي، وقامت بتدريس طلابها في الجامعة الكتب العربية المتعلقة بالتاريخ في القرون الوسطى مثل (ابن الأثير، والطبري، والواقدي...) كما قامت بتدريس تفسير القرآن الكريم، معتمدة تفسير (البيضاوي والسيوطي).

وترى فرالوفا: (أن في أوروبا، كان هناك خوف من الإسلام، منذ القرون الوسطى، إذ كانت هناك شخصيات مسيحية كانت خائفة من تأثير القرآن، كما تولد شعور بالحسد لدى الأوروبيين تجاه العرب المسلمين نتيجة المقارنة بين الحياة المتطورة للحضارة العربية الإسلامية في الأندلس مع الحياة المتخلفة في أوروبا، رغم أن أوروبا أخذت الكثير من الثقافة العربية)، وتقول: (وأنا في محاضراتي للطلبة الروس

في الجامعة، أشير دائماً إلى كتاب [تأثير الإسلام على أوروبا فـــي القرون الوسطى] للاسكتلندي مونتغمري واط الذي يقول: ((علينا أن ندرك إلى أي درجة نحن الغربيون مدينون للعرب مـــن ناحية الحضارة ولو أسررنا هذه الحقيقة، فهذا بدافع من كبريائـــنا الكاذبـــة))، وفـــي مؤتمـــر (اتحـــاد المســـتعربون المتخصصـــين فـــي الدراسات الإسلامية الذي عقد في جامعة (أوتـــرخت) في هولندا عام (1990م)، قدمت فرالوفا موضوع (القصائد الشعبية باللهجة العربية في مالطا والفلكلور العربي)، وهـــي ترى في هذا البحث أن أساس الكلام المالطي هو اللغة العـــربية، كمـــا تـــرى أنـــه لا يمكـــن أن يكون هناك نهاية للاســـتعراب، طالمـــا الشعوب والآداب العربية موجودة (لأن هناك أدباء جدد والشعوب العربية موجودة وبالتالي فإن دراسة آداب وثقافـــة هذه الشعوب موجودة، إلا إذا كانت نهاية العالم عندئذٍ ينتهي الاستعراب).

أما المستعرب بلوندين في جامعة بطرسبورغ، فيرى أن أســـاس أهـــداف الاستعراب الروسي هو التعريف بالحضارة العـــربية الإسلامية ودراستها من خلال (ترجمة المخطوطات الـــتي تتعـــلق بـــتاريخ وآداب العـــرب المسلمين)، وأن هذه الـــترجمات كـــانت تتم من خلال التعاون بين العلماء العرب والعـــلماء الروس. كما يعطي ميزة لبيئة الاستعراب الروسي على الغربي، وهي التسهيلات التي كانت تقدم للباحثين العرب لدراســـة تـــراثهم من خلال المخطوطات الموجودة في خزائن المكتـــبات فـــي روســـيا، وفي جميع الأوقات، يقول عن هذه

المســألة: (لــم يواجــه الباحــثون أي صعوبات في دراستهم وأبحــاثهم عــلى المخطوطــات العــربية، وإن مــن أهداف الاســتعراب الروســي، هو إعادة هذه المخطوطات إلى الدول العربية بتحقيقها وإصدارها في كتب، إن المكتبات في أوروبة الغــربية لا تعطي للباحثين العرب فرصة التعامل بسهولة مع تــراثهم من خلال معاينتهم للمخطوطات العربية) وإن صلات العــلماء العرب المسلمين والعلماء الروس لم تنقطع (منذ كان الشــيخ طنطاوي أستاذ في جامعة سانت بطرسبورغ.... هذا التعاون مازال قائماً بأوجه مختلفة، وإن كان الوهن قد اعترى هذه العلاقات في الفترة الأخيرة، ولكن نحن كمستعربين روس نظــن أن هذه الفترة مؤقتة وقصيرة، ونبذل كل الجهود لنعبر هذه الحواجز المصطنعة الموجودة بيننا).

وأخيــراً، نســتطيع القول أن الاستعراب الروسي عكس الجوانب الإيجابية والسلبية في الشرق العربي المسلم ولكن لم يصــدر فــي مواقفه عن رأي متعصب ولم يتزود سلفاً بفكرة ثابــتة عــن هــذا الشرق وإنما عايشه واقعياً فصادف النماذج المختــلفة. وعــندما تــم الــتعامل مع التراث العلمي العربي الإسلامي وتحقيق المخطوطات والأدب القديم فإن ذلك كان يتم في أحيان كثيرة من خلال التعاون بين العلماء الروس والعلماء العــرب وســاهم العرب أنفسهم في التعريف بالثقافة العربية الإســلامية وتدريس العربية في جامعات ومعاهد الاستعراب الروســي كمــا تــم ربط الماضي بالحاضر والاهتمام بالأدب العــربي المعاصر وأرسى المستعربون الأوائل أسس مدرسة

الاستعراب الحالية التي يعتبر المستعربون الروس المعاصرون أنفسهم فيها امتداداً لأولئك المستعربين الأوائل الذين وقفوا جهودهم وعلمهم على أن يكون الاستعراب الروسي بعيداً عن أي دوافع غير الدوافع المعرفية العلمية فكانت صورة العربي المسلم مبشرة بالنهضة الحديثة راغبة في تجاوز واقع التخلف إنه الشرق المسلم الحي الذي يسير بحركته دائماً إلى الأمام وأخيراً أقول أنه يحق لنا التمييز بين استعراب أوروبي غربي ارتبط وكرس نفسه في معظم الأحيان لخدمة القرار السياسي الاستعماري فلم يظهر من الشرق المسلم إلا صورة السلبية، ولم يكتفِ بذلك بل وقامِ بتضخيم هذا السلبي ونشره عبر وسائله المختلفة ليعطي مبرراً لإحساسه بالتفوق والتمايز وليقرر هيمنته على هذا الشرق وحق الوصاية عليه وبين استعراب كان يظهر الإيجابي والسلبي وتعامل مع الشرق المسلم ومن وجهة النظر المعرفية الإنسانية ووضع التخلف ضمن ظروفه وأطره التاريخية ثم أظهر صورة العربي المسلم كإنسان قادر على تجاوز واقعه في حركته إلى الأمام لقد كان الاستعراب الروسي فعل استكشاف ومعرفة للآخر في إطار التبادل المعرفي والحضاري وليس فعل إنشاء كما هو حال الاستشراق الغربي ولا أجد أفضل من مقولة الأديب العربي المصري محمود تيمور التي تحدث فيها عن المستعرب كراتشكوفسكي وأجدها تنطبق على الاستعراب الروسي، يقول: ((وغمرني شعور لطيف فيه شيء من الزهو لوجود مثل هذا الصديق لنا معشر العرب في بلاد نائية قد وقف حياته على خدمة آدابنا وإعلاء

كلمتـنا فـإن رجـلاً قصر حياته على نشر ثقافتنا العربية في العالم الغربي وأوسع لنا الطريق لنتبوأ مكانتنا بين آداب الأمم العالمية لجدير بأن يحتل في قلوبنا أكبر مكانة)).

□□

المصادر والمراجع:

1 ـ القرآن الكريم.

2 ـ مع المخطوطات العربية ـ كراتشكوفسكي ـ تعريب د.محمد منير مرسي ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ 1969.

3 ـ تاريخ الاستعراب الروسي ـ كراتشكوفسكي.

4 ـ صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى ـ ريتشارد سودريه ـ تعريب د.رضوان السيد ـ معهد الإنماء العربي ـ بيروت ـ 1984.

5 ـ الاستشراق ـ إدوارد سعيد ـ تعريب كمال أبو ديب ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ـ 1995.

6 ـ الاستشراق بين دعاته ومعارضين ـ ترجمة وإعداد هاشم صالح ـ دار الماضي ـ بيروت.

7 ـ الحروب الصليبية ـ ارنست باكير ـ تعريب د. الباز العريني ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ الطبعة الثانية.

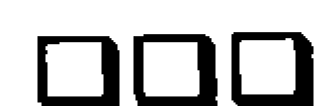
8 ـ بابا وات من الحي اليهودي ـ يولكيم برنز ـ تعريب خالد أسعد عيسى ـ دار حسان ـ دمشق ـ 1983.

9 ـ تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ـ د. سعيد عاشور ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ 1976.

10 ـ قصة الحضارة ـ

11 ـ مقتطفات من الأعمال الكاملة ـ كراتشكوفسكي ـ

12 ــ موسوعة المستشرقين عبد الرحمن بدوي ــ دار العلم للملايين ــ بيروت طبعة ثالثة 1993.
13 ــ مجلة الفكر العربي ــ العدد 31 ــ بيروت 1983.
14 ــ جريدة البيان 2 أكتوبر 1989.
15 ــ المؤلفات الكاملة ــ بونشين ــ 1949.
16ــ قصـــائد شرقية ــ بوشكين ــ ترجمة: طارق مردود ــ دار علاء الدين ــ دمشق 1999.
17 ــ العـــرب والـــروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى جوزيف نسيم، دار النهضة العربية ــ بيروت.
18 ــ دراسات في تاريخ الأدب العربي ــ منتخبات ــ كراتشكوفسكي ــ دار النشر (علم) ــ موسكو ــ 1965.
19 ــ بحوث سوفيتية في الأدب العربي ــ دار التقدم ــ موسكو 1978.
20 ــ تاريخ التراث العربي ــ فؤاد شكرين ــ الهيئة العامة للتأليف والنشر ــ ترجمة د.ع. فهمي أبو الفضل ــ القاهرة 1971.
21 ــ لقاءات مع عدد من المستعربين الروس ــ بطرسبورغ ــ 1998.



الفهرس

❑❑

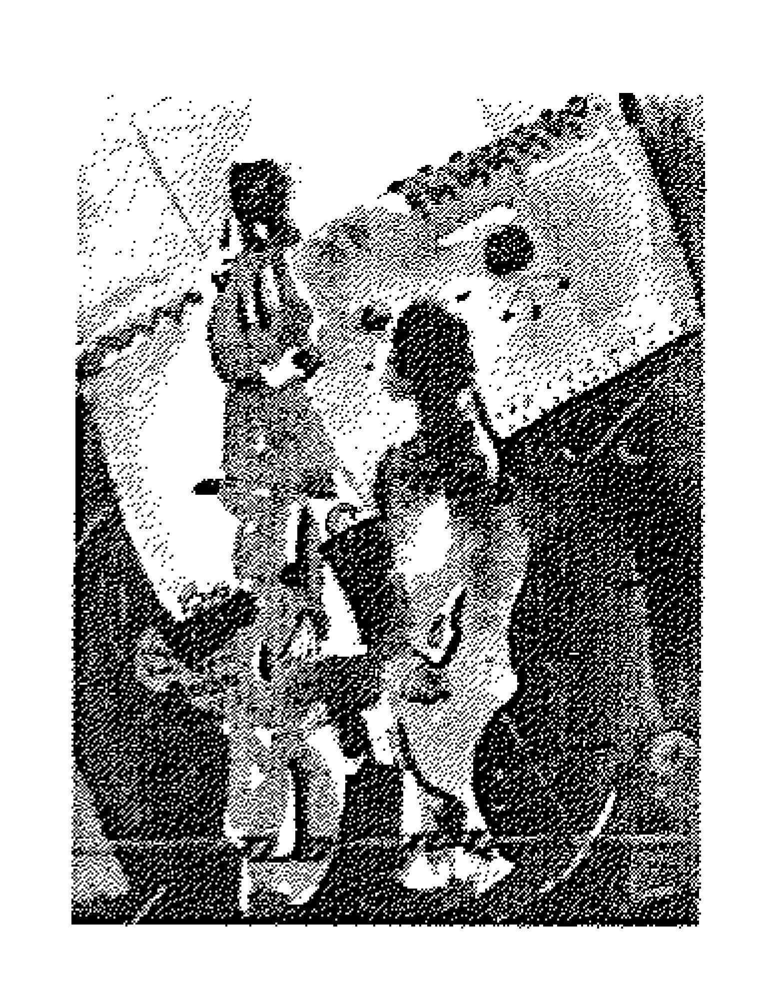
رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

اضـــاءات عـــلى الاستشـــراق الروســـي: دراســـة/
فاطمـــة عبد الفتاح- [دمشق]: اتحاد
الكتاب العرب، 2000 - 111 ص؛
25سم.

1- 956 ع ب د إ   2- العنوان
3- عبد الفتاح

ع- 2000/10/1823-   مكتبة الأسد

□□





هذا الكتاب

تعـرض الدراسة للاستشراق من منطلق التمييز بين بداياتـه ودوافعه في الغرب، وبين هذه الدوافع والبدايات فـي الاستشـراق الروسـي وهذا يقول إن المستشرقين الـروس لـم يدرسوا الشرق المسلم من منطلق التعصب الديني ومع أن هذا الاستغراب تم أولاً بمعونة الغرب إلا أنه عاد وتحرر منه.

ثمن النسخة
١٧٥ ل.س في أقطار الوطن العربي

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق